روايـة

طيور الشرق

فـــــي

اسكندنافيا



عمرو إبراهيم ماهر

رقم الايداع : ٢٠١٠/١٩٢١٩
الترقيم الدولي: ٥-٩٥٨٠-١٧-٩٧٧

مغامــرة

قبل أن تطأ قدماي الأرض الاسكندنافية وبالذات الدانمارك لم أكن أفكر في يوم من الأيام الذهاب إلى هناك لأن حلمي في أروبا لم يكن يتعدى حدود فرنسا التي كنت أرتبط بها ارتباطاً وثيقاً غذى شغفي بها.

حيث كانت لغتي الأولى الفرنسية، فأردت اتقانها بطلاقة تخرج عن حدود المناهج الدراسية العادية فضلاً عما أوحاه أُدباؤنا ومفكرينا في عقولنا عن فرنسا فاسمها كان يكفي للتدليل على الحب والرفاهية وتحت الحاجة الاقتصادية كان لابد من الارتحال إليها لأني وجدتها الحقل الخصب الذي يمكن أن تنضج فيه أحلامي التي كانت تعني مواجهة الحياة.

واكتشاف الحياة الحديثة بأسمى معانيها من تقدم ورفاهية وتحقيق أحلام طال عهدها بنفسي.

حزمت حقائبي وحجزت تذكرة السفر إلى باريس في صيف ١٩٧٥ وقبل السفر بأيام معدودات فوجئت بخبر يملئ كل الصحف بمنع الطلبة من السفر إلى فرنسا بعد أن زاد عدد الطلبة المسافرين وافترشوا الأرصفة هناك.

كررت المحاولة في العام التالي فلم تنجح مثل الأولى لذات السبب فاعتقدت بأنني همت بفرنسا بأكثر مما تستحق . سيما بعد أن تقابلت مع أحد الأصدقاء الذين سافروا إلى امستردام ، بهولندا ، وحكى لي عنها أكثر مما أعرفه عن فرنسا فقررت السفر إليها إلا أنني أخفقت في الانضمام بإحدى الافواج السياحية بسبب نقص صورة كان المشرف على الفوج قد أخذ الجوازات وذهب بهم إلى السفارة ولم أستطيع اللحاق به.

وعندما أدركت بأنني همت بأوربا بأكثر مما تستحق فقلت لنفسي، تباً لكي يا أروبا، وحين هممت بمغادرة الشركة السياحية فوجئت بأحد موظفيها الذي كان يرقبني يقترح على الذهاب إلى الدانمارك حيث أن الشركة تنوي تنظيم فوج إلى هناك فحولت أوراقي من هولندا إلى الدانمارك دون أن أعلم شيئاً عنها.

عدت إلى أطلس الجغرافيا أطالع خريطتها فوجدتها تحتل أقصى شمال غرب أوربا في شبه جزيرة اسكندناوه وتتلامس حدودها مع المنطقة القطبية الجليدية الشمالية وتتكون من عده جزر تعتبر أكبرها جزيره آرهوس وهي عضوة في الاتحاد الاسكندنافي المتكون من السويد والدانمارك والنرويج وفنلندا وايسلندا.

وكان يعرف أهلها بسكان الخلجان، الدائنين، وكانوا يسمون الفايكنج.

تسيد الفايكنج الممالك الأوربية في العصر السحيق بفضل مهارتهم في ركوب البحر التي لا يضاهيهم أي بحارة في العالم بفضل شجاعتهم وبسالتهم وجرأتهم لكونهم أعتى الممالك في ذلك الحين أما عاصمتها فهي كوبنهاجن قلب اسكندنافيا.

عندما وصلت المطار فجراً شعرت باضطراب ممزوج بفرح اضطراب من المجهول، وفرح لأن حلمي يتحقق.

وكان برفقتي عدد من أصدقائي أصروا على توديعي وفي عيونهم ومضات الأمل كأنهم يدفعونني لحلبة الحياة معلقين آمالهم عليها وسعداء لتحقيقها أخيراً.

كنت أسألهم ماذا سيفعلوا لو وجدوا أنفسهم مكاني في المنطقة المتجمدة التي طالعتها بكتاب أطلس وكيف سيطيقون الجليد ويتحركون خلاله أسئلة

كثيرة تدور بيني وبينهم جعلت عيناي متيقظة وتجنح في أفق ليل سماء مطار القاهرة.

بدأ الليل يذوب وطلائع نور الفجر تناسب في لوحة تعبيرية جميلة.

واقتربت الساعة من السادسة صباحاً موعد الرحيل وتساءلت وعيناي متيقظة كما هي هل ستقلع هذه الرحلة أم يا ترى هناك من سيلغيها إلى أن دقت السادسة فعانقت أصدقائي عناقاً طويلاً غلفته القبلات الحارة ونصائحهم الشجاعة الدافئة ومضات الأمل التي تشع من عيونهم لدافعي إلى عالم الرفاهية والتقدم.

كان الفوج الذي أعددته شركة السياحة التي ساعدتنا في الحصول على التأشيرة وحجزت هذه الرحلة يربو على ٦٠ طالباً.

وكانت مهمة الشركة تنحصر في تسهيل دخولنا الدائرة الجمركية انتظاراً للإقلاع وينتهي دورها عند هذا الحد وكانت قرارات منع السفر هي الوسيلة للكسب السريع الذي حققته هذه الشركات عن طريق الإعلان عن أفواج سياحية في حقيقتها وهمية وجدت نفسي بمفردي على أحد مقاعد الترانزيت بينما كان أعضاء الفوج عبارة عن مجاميع صغيرة كل ٥ أو ٤ تجمعوا معاً وقرروا السفر معاً، فكان معظمهم منتشي سعيد وهو يمر بين المقاعد ويبدو على بعضهم بأنهم لم تكن هذه الرحلة هي الأولى له.

فوحدتي في مقعدي الوثير كانت مبعث سامي وحاولت تبديدها بمحاولة ترجمة ما يذاع في الميكرفون الداخلي عن اقلاع أو وصول الطائرات ولكن للأسف تزايد قلقي لأنني لم أفهم شيئاً مما يذاع فتحسست بيدي على جيبي لأطمئن على الخطاب الذي أرسله معي والد أحد العاملين بفندق شيراتون بكوبنهاجن يوصيه علي بعد أن اصطحبني إليه أحد أصدقائي قبل الذهاب إلى

المطار وأيضاً الورقة التي كان رسمها لي أحد المهندسين الذين كانوا يعملون هناك وقابلته في عجالة واقترح أن أقيم في بيت للشباب اسمه، الاكتف Active، باعتباره أرخص مكان هناك.

وفي وسط هذا الصمت الداخلي فوجئت بشاب أسمر فارغ الطول تتلألأ الابتسامة على ثغره منادياً بين المقاعد على أبناء الدقهلية ويبدو وأن الوحدة جعلته ينطلق بهذه المناداة لعله يجد صديقاً يبدد وحدته هو الآخر.

فنهضت ألوح له وما إن لمحني حتى أسرع يأخذني بالأحضان وهو يسألني: من أي بلدة ؟ فقلت له: من المنصورة . فواصل قائلاً: وأنا من طلخا ثم صحبني ليعرفني على الشيخ عبد الحميد من أسيوط فلاحظت أنه متميز بالدروشة ولازمة يرددها دائماً: الحمد لله على ما شاء وأوصلنا إلى هنا.

كان طه مُفجر ضحكات لا يهدأ على حال واحد أبداً دائماً يتدخل في كل أمر ولا يتحرك أحد إلا ويعلق عليه تعليقاً يكاد يفجر الضحكات في أعماقنا وتوقفت ضحكاتنا بمجرد سماع الميكرفون الداخلي يعلن عن استعداد رحلتنا للإقلاع.

صاح الشيخ : ويسكي

وقف أعضاء الفوج مصطفين معاً كباقي الركاب متوجهين إلى باب الخروج الذي استقبلنا عنده رجلاً أشقر ملتحي قوي البنيان كأسلافه الفايكينج، بصحبته مضيفة حسناء يرحبوا بنا ويطلبوا منا الصعود إلى الأتوبيس الذي قادنا إلى قرب سلم طائرة شركة ساس فصعدنا نتسابق على السلم لنكون بجوار النافذة فجلست بجوارها مباشرة وجنبي طه ثم الشيخ عبد الحميد ولاحظت أن اللغة الانجليزية بدأت هي اللغة المستعملة مما جعلني أسأل طه عن قدرته فيها فأجاب أنه سيستعمل لغة الخرس لأنها اللغة الوحيدة المتعارف عليها في بلدان العالم.

ثم وجه سؤاله للشيخ عبد الحميد لآخذ رأيه في ذلك فأجاب الشيخ عبد الحميد: بالطبع.

فتصاعدت ضحكاتنا تبدد ما تسرب إلي من خوف بشأن اللغة وردد كابتن الطائرة تحياته لنا ورجونا ربط الأحزمة.

وكانت المضيفات تسهل فهم تعليماته بعد أن وصف لنا سرعة الطائرة وما ستكون عليه من ارتفاع والوقت الذي ستستغرقه للوصول لمحطة الترانزيت أثينا وننطلق بعدها لكوبنهاجن.

وما هي إلا لحظات حتى اخترقت الطائرة السحاب لتصبح القاهرة تحتنا كمربعات خضراء منظمة بطريقة هندسية فريدة إلى أن دخلنا في رحاب البحر الأبيض فتلون الجو بالزراق باستثناء بضع سحب بيضاء كانت تشبه قطيع الخرفان الذي يسير وراء بعضه.

أدهشني طه عندما تحدث بالإنجليزية مع شاب وفتاة دانمركيان كان يجلسان خلفه ودعم طه أواصر حديثه بإهدائهما علب سجاير كليوباترا اشتراها من السوق الحرة.

ثم قام بفضوله من مكانه ليجلس معهم وأتى الشيخ عبد الحميد يحل محله ليكون بجواري وهو يقول: الحمد لله على ما شاء وأوصلني إلى هنا.

كان سبب اندهاشي هي الطلاقة التي كان يتحدث بها طه للإنجليزية وأيقنت أن مستواه في اعتقاده دون المستوى أما مستواه بالنسبة لي فكان فائقاً مما أحسسني بضياع مرتقب في تلك البلاد.

جاءت المضيفات تحمل صنية طعام لكل راكب عبارة عن عينات فريدة من السلاطات واللحوم الباردة وحين شعرت بالظمأ رأيت الشيخ عبد الحميد يطلب المياه هو الاخر.

وسرعان ما أحضروا كأسين ما أن بلعت أحدهما حتى وددت أن ألفظها لشعوري بمرارة شديدة في حلقي لأنها لم تكن مياه بل اتضح أنها صودا. وما أن بلعها الشيخ عبد الحميد حتى وقف صارخاً بالعربية يقول: أتسقونا الويسكي على أنها مياه هذه أشد الجرائم ضراوة.

فاتجه إليه أحد المصريين وحاول تهدئته: دا طعم المياه هنا ولازم تتعود عليها.

فأجاب الشيخ عبد الحميد: أتعود على الويسكي. هذا هو الفسق بعينه.

فقال له طه: إبقى إشرب كاكولا يا شيخ عبده وما تفضحناش.

فاستكان الشيخ عبد الحميد وجلس مضرباً عن الطعام وهو يقول: عشت ورأيت العجب يا عبده.

وأنا أكاد آهلك من الضحك ولم ينقذني منه سوى هبوط الطائرة من السحاب إلى البحر، وعاد اللون الأزرق يغلف الجو، وجاء صوت الكابتن يعلن اقتراب وصولنا لمطار أثينا.

يبهرنا البحر بجمال صفحته الزرقاء والسفن البيضاء تسير كالمدن فيه بجانب اليخوت المتألقة به واقتربنا أكثر من الشاطئ اليوناني المزدحم بالمصطافين وشهدنا سباق التزلج المائي، حيث يتزحلقون بالزحفات المشدودة باللنشات الصغيرة التي تطير على صفحة الماء.

وبعدها ظهرت شوارع اليونان وآثار الاكربول المهيبة وكانت الشوارع مملوءة بالسيارات التي تشبه لعب الأطفال والفيلات مكسوة بالأشجار ومحلاه بحمامات السباحة الزرقاء.

لم أرد أن يفوت هذا المنظر الشيخ عبد الحميد فدعوته ينظر إلى النافذة بدلاً من انشغاله بقراءة الجرائد ولكنه قال: رأيت هذه المناظر كثيراً.

فقلت له: سبق وزرت اليونان؟.

- أبداً.
- وأين رأيتها؟.
- في الصور الطبيعية والسينما.

لم أرد أن تطول المناقشة بيني وبينه لأنه يبدو عجيباً لن أصل معه لأي نتيجة واتجهت للنافذة أواصل استمتاعي بهذه المناظر البديعة إلى أن لامست عجلات الطائرة أرض الممر لتندفع بتثاقل وهي تهدأ من سرعاتها شيئاً فشيئاً إلى أن استقرت بمطار أثينا.

دخلنا المطار لنجد أنفسنا في عالم آخر متميز بالصراحة العلنية في التعبير عن مشاعره بلا خجل أو حياء وسط جمع البشر دون أي فضولي يحرم أحد عن أي لحظة تعبير كان معظمنا ينظر إلى هذه المشاهد وكأنها مشاهد سينمائية صادقة بين فتى يودع فتاته بعناق طويل وقبلات ساخنة وأخرى تدلل كلبها وكأنه وليدها.

ونحن في قمة السعادة والانبهار، ولمحت طه بين صديقيه يدخنون بشراهة وهم يتحدثون بود بالغ كأنهم أتوا الرحلة معاً بينما وقف الشيخ عبد الحميد أمام فتى يعانق فتاته بحرارة وهو مذهول يتمتم. يكاد يخرج عن وقاره ويصرخ فيهما.

أقلعت الطائرة بنا في طريقها مباشرة لكوبنهاجن ولاحظت تغيير طاقم المضيفات وكانوا أكثر جمالاً وجاذبية من المضيفات اللاتي أخذونا من القاهرة.

وأحضروا وجبة الغذاء وشراب برتقال مثلج بعدها راح أغلب الركاب في النوم والبعض الآخر أخرج الخرائط ليحدد مسارنا.

ويتأكد من مرورنا على دول تشيكوسوفكيا ثم المجر وألمانيا الغربية التي كنا نطير فوقها على ارتفاعات منخفضة نسبياً ليحقق لنا كابتن الطائرة رغبتنا في مشاهدة تلك الدول وهو ينبه الركاب لمرورنا فوقها، بينما راح الشيخ عبد الحميد في سبات عميق وتصاعدت على أثره السمفونيات المزعجة من حنجرته مؤكد عدم إزعاجه وكنت قد تبادلت الحديث مع طه فأطلعني على الصداقة المتينة الذي ربطه بالفتى والفتاة حين وعدوه بتوصيلة إلى العنوان الذي يريد الوصول إليه بكوبنهاجن.

شمس أوربا المشرقة

وظلت الطائرة تطير إلى ما يقرب من خمس ساعات منذ أن تركنا أثينا واستيقظ الركاب حين جاء صوت الكابتن يعلن عن اقترابنا من مطار كوبنهاجن.

فاتجهت إلى النافذة لأرى هذه المدينة أطابق خيالي بحقيقتها إلا أنني صدمت بمفاجأة مذهلة كادت تطير عقلي لأنني لم أرى أي مدينة على الاطلاق سوى أرض شاسعة خضراء كجزيرة في وسط البحر متناثرة الأشجار الباسقة.

واعتقدت أن الطائرة تهبط اضطرارياً بها لعطل أصاب أجهزتها لم يرد الكابتن أن يفزعنا به فبرر سبب هبوطنا باقترابنا من مطار كوبنهاجن الذي لم يكن له أي أثر على الإطلاق.

وشاركني طه نفس الشعور حين قال: هو إيه الحكاية. الطيار غلط ولا إيه؟. لا فيه بيوت ولا شوارع ولا حاجة أُمال فين المطار؟.

وهنا أفاق الشيخ عبد الحميد ليقول: يمكن يكون المطار تحت الأرض. من التقدم.

لامست العجلات أرض الممر واستدارات الطائرة لأرى بضع طائرات إلى أن توقفت تماماً لننزل إلى مطار كوبنهاجن.

نهضنا بشغف للخروج من الطائرة لنتأكد ما إذا كان المطار فوق سطح الأرض أم تحتها كما قال الشيخ عبد الحميد وتقدمت برفقته يسبقنا طه وصديقته لأفاجئ بممر يشبه الأنبوبة الممتدة من المطار إلى الطائرة لندخل مباشرة إلى المطار.

تأكدنا بوجوده فوق سطح الأرض المصمم بطريقة أفقية فتقدمنا مبهورين سعداء.

إننا نخطو أول خطوة على بساط الرفاهية لنجد أنفسنا مباشرة على أرض متحركة تأخذنا إلى ممر آخر مبطن بالزجاج ومشع بالأضواء إلى أن أوقفنا أمام ضابط الجوازات والابتسامة تملأ وجهه وكأنه يرحب بنا ويختم لنا بالدخول لنخطو إلى صالة مترامية مقسمة إلى أقسام فخمة من بنوك وكافتيريات ومكاتب إلى كل ما يحتاجه أي قادم للبلاد ظللت أتأمل هذه الصلة وأنا مبهور من السكون والهدوء المخيم على أرجائها والمملوءة بمختلف الأجناس.

توجهت إلى مكان الحقائب لأجد حقيبتي تنتظرني فحملتها عائداً إلى نفس الصالة لأجد طه يقف في منتصفها وهو يتمتم. وخفت أن تكون العدوى أصابته من الشيخ عبد الحميد. فغدوت لأستفسر منه عن حاله لم أستطع منع نفسي من الضحك عندما قال لي: تتصور أن أصدقائي الحلوين بعد ما ضيعت عليهم خرطوشة السجاير على أمل أنهم يوصلوني للعنوان بيجوا لغاية هنا ويتأسفون لي بحجة موعد هام ويقولوا لي تقدر تأخذ تاكسي يوصلك له.

فرَبت على كتفه وقلت له ضاحكاً: تعيش وتأخذ غيرها.

فأطرق رأسه صامتاً.

وأدركنا الشيخ عبد الحميد وهو يدفع عربة عليها حقيبته فوضعنا حقائبنا عليها ودفعناها ثلاثتنا.

وما أن اقتربنا من باب الخروج الزجاجي الضخم حتى انفتح أتوماتيكياً وعلق الشيخ عبد الحميد: الحمد لله على ما شاء وأوصلنا إلى هنا.

خرجنا من المطار ونحن ملتفين بمعاطفنا وبلوفراتنا الثقيلة لتحمينا من جليد المنطقة القطبية وإذ بنا نفاجئ أن الجو صحواً مشمساً والسماء زرقاء صافية لا أثر لأي جليد والشمس ساطعة والجو لا يفرق عن جو مصر في الربيع بأي شيء مملوء بالنسمات المنعشة التي لطفت من نفوسنا وبعثت فينا الاطمئنان فخلعنا معاطفنا ووقفنا نستمتع بشمس أوربا ونردد جميعاً: الحمد لله على ما شاء وأوصلنا إلى هنا.

علت البسمة ثغورنا وحاولنا عبور الشارع للرصيف الأخر فلاحظنا أن جميع السيارات القادمة في اتجاهنا تتوقف فحاولنا التراجع للسماح لهم بالمرور أولاً إلا أنهم أصروا جميعاً إيقاف سيارتهم والبسمة تملأ ثغورهم ويلوحون لنا بأيديهم بأن نمر نحن.

من أول خطوة لنا على البساط الأسكندنافي، عرفنا أن قيمة الانسان تعلو حتى على السيارة.

وتحت هذا الإصرار عبرنا وهم ما زالوا يلوحون بابتسامتهم الصافية وكأنهم يرحبوا ويحيونا على سلامة الوصول.

ونحن مندهشين من كرم هذه الأخلاق فوقف الشيخ عبد الحميد يلوح لهم عالياً بيديه. وكأنه نجم يحيى معجبيه الذي توافدوا لاستقباله.

فجذبه طه من يده لأنه لو كان ترك لظل مستمراً في مكانه وهو يلوح بيديه ولكان طريق المطار قد أغلق لتكدس السيارات التي لم يبدي أصحابها أي اعتراض وهم مبتسمون بأدب جم.

صعدنا إلى أتوبيس شركة (ساس) لينطلق بنا يخترق المدينة ونحن في مقاعدنا الوثيرة نطالعها فكانت تظهر لنا شيئاً فشيئاً لنرى فيلاتها ذات التصميم

الأوربي الخلاب المميز سطحه بهرمي التكوين البني اللون والمطعمة بالأشجار الوافرة.

والزهور الملونة التي تزين نوافذها في ديكور رائع يخيل إليك أنك في حدائق بابل المعلقة تجعلك تتنفس الصعداء لأنك تحس بالأمان والجمال والحياة.

والشوارع تكاد تكون زجاجية من شدة براقتها ونظافتها والأشجار المشذبه تحتضنها من كل جانب تلمس التكنولوجيا الحديثة من معدات وأشكال محطات البنزين المنتشرة على الطريق وما أن إقتربنا من المدينة حتى بهرتنا العمارات الزجاجية التي يبدو بعضها ناطحات سحاب والشمس تنعكس على صفحتها فتلألأ.

ثم ما لبثنا أن شعرنا بالرهبة والإجلال ونحن ننظر إلى المباني الكلاسيكية الضخمة.

وأشد ما أدهشنا، هو بحر الشمال الذي تتدفق مياهه في قنوات واسعة تشق المدينة وتقسمها إلى جزر وتتصل ببعض عن طريق كباري ملونة وتسير اليخوت السياحية الجميلة التي تمخر عباب هذه القنوات والمليئة بالسياح المفتونين بجمال المدينة.

وإكتشفنا النافورة

أعجبت بطريقة تقسيم شوارع المدينة.

فكانت تنقسم إلى عدة حارات لتعطي راكبي الدراجات طريقاً خاصاً بهم لا تزعجهم السيارات ويعمرون قلوبهم برياضيتهم اليومية.

والشيء الملفت هو إنك تجد رجالاً ونساءً وأطفالاً من كل الأعمار يستخدمونها وسيلة نقل. دخل بنا الأتوبيس إلى جراجه بعمارة (ساس) الشاهقة لننزل منه لندخل إلى ترانزيت آخر فخم مبطن بالسجاد الفارسي أعدته شركة ساس ليكون مركزاً لإستقبال وتوديع زوار الدانمارك ويسمى (الأيرترم).

جلسنا على مقاعد الأيرترم الوثيرة، نلتقط أنفاسنا عبر تكييفه المركزي من كل الإبهار الذي شغل عيوننا بهذه المدينة التي أذابتنا في الطمأنينة بجمالها.

ثم خرجنا نعبر الطريق متوجهين إلى محطة السكة الحديد لنرى سيارات التاكسي المرسيدس آخر موديل تقف في نظام بديع في انتظار ركابها خلف بعضها بكل أدب واحترام حتى أن سائق السيارة يقوم بفتح الباب للراكب.

دفعنا باب المحطة S M S ودخلنا إلى الصالة الفسيحة وكأنها مدينة أخرى مستقلة بنفسها بكل الأقسام التي وجدتها بالمطار مكاتب خدمات، استعلامات، سوبر ماركت، بنوك، بوليس، بواسطة سنترال كافتريات والسكون والهدوء مخيم. لأن القطارات كانت تحت هذه الصالة وتأخذ ركابها بواسطة السلالم الكهربائية. كانت موسيقى فرقة آبا الناعمة تنساب من كافتيريا المحطة لتعطي موسيقى تصويرية تنطبق على كل مشهد من مشاهدها.

والملابس الوطنية تكشف عن جنسيات رواد المحطة وكأنها كرنفال يضم معظم بلاد العالم.

توجهنا إلى صناديق الأمانات لنضع شنطنا فيها حتى لا تعوق مسيرنا في البحث عن المكان الذي سنأوي إليه.

أخذت مفتاح الصندوق بعد أن وضعت فيه (٣) كرونات لينغلق على حقائبي كما فعل طه وبعض أعضاء الفوج.

بينما الشيخ عبد الحميد أثر أن يجلس على حقيبته حتى لا تفلت منه ورفض هذا الاقتراح وتشبث بها ولم نفلح في إقناعه. وما زالت القبلات الساخنة التي يودع الفتيان فتياتهم تجعله يضرب كفاً على كف.

وفوجئت بـ طه يستأذن منا ويودعنا ليتجه إلى العنوان الذي معه بينما صرت أنا والشيخ عبد الحميد وحيدين ولكن شعور بالألفة والطمأنينة ملأت نفوسنا بالمشاهد الرائعة التي نبعت من رفاهية الإنسان المتقدم والمحسوسة في كل جزء من أجزائها جعلتنا لا نشعر بغربتنا واذابتنا في أحضانها من أول لقاء بجمالها وجعلني أردد: الحمد لله على ما شاء وأوصلني إلى هنا.

خرجنا من المحطة لنجد ثلاثة من زملاء الفوج يختلفون عن المكان الذي يذهبون إليه.

اقترحت عليهم أن يأتوا معنا إلى: الأكتف، وهو بيت الشباب فوافقوا وسرنا على حسب الخريطة التي كان رسمها لي أحد المهندسين الذي قابلته قبل سفري ورسمها لي في عجالة كانت عابرة عن مظاهر الشوارع فهي لا تحمل عناوين.

فمثلاً كانت بيانات الخريطة كالتالي: من أول شارع المحطة ثم ندلف يميناً عند أول إشارة مرور.

ونسير ما يقرب من خمس دقائق لتقابلنا نافورة ضخمة في ميدان نعبره.

وهكذا وأثناء سيرنا كنت أقول لهم بأنه يجب أن تقابلنا نافورة بعد خمس دقائق فيثب الشيخ عبد الحميد صارخاً ها هي وكأنه اكتشف مقبرة فرعونية فننظر لبعضنا ونبتسم من فرحتنا ونكمل المسير.

تقدمنا فرحين من هذه الاكتشافات المتوالية مطمئنين بأننا في طريقنا الصحيح لبيت الشباب إلى أن وصلنا إلى البوسطة المفترض أن يكون البيت بجوارها حسب الخريطة إلا اننا لم نعثر له على أي أثر.

فسألنا عنه فدلنا شخص إلى مكان آخر فذهبنا إليه ولم نعثر على أثر وهكذا ظللنا ندور في حلقة مفرغة وعرفنا فيما بعد أنه كان جهل من مترجمنا إلى أن أصابنا الإعياء فارتمينا على كنبه خشبية كانت بجانب الطريق ونحن مترنحين كالسكارى.

لأننا إلى اللحظة لم ننام فغلبنا النعاس إلى أن لاحظت أحد الشباب كان يقف أمام فاترينه محل فاقترحت على زملائي سؤاله فنظروا إلى بحنق فقلت لهم: هل سننام على هذه الكنبة للصباح الساعة أصبحت السادسة مساءً ولابد من إيجاد حل؟.

فقمت أنا وسألته بالإشارات ونظر إلى الخريطة ولم يفهم شيئاً سوى كلمة الأكتف المكتوبة بالانجليزية.

فقرر أنه يعرفه فتوجهت لزملائي وقلت لهم انهضوا وأطلبوا منه مساعدتنا في الوصول إليه وما أن عرض مترجمنا عليه ذلك رحب وتقدم أمامنا ليرشدنا عنه ونحن وراءه والشيخ عبد الحميد رفع حقيبته على كتفه بينما الشاب ينظر إليه من لحظة إلى الأخرى بنظره إعجاب على هذا التصرف الذي

لم يرى مثليه من القرن ١٧ عندهم وما هي لحظات حتى أصبحنا أمام الأكتف فأخذنا نهمره بالقبلات.

أما هو فأخرج أتوجراف من جيبه وطلب من الشيخ عبد الحميد أن يوقع عليه بالعربي.

عنوان ورقم تليفون

ما أن رأيت سريري حتى قذفت نفسي عليه لأغط في سبات عميق نهضت من النوم الساعة العاشرة صباحاً تقريباً.

وقبل أي شيء أخذت أحصي الكرونات المتبقية معي والتي حصلت عليها من بنك المطار فانفزعت عندما أدركت بحسبه بسيطة بأنها ستنفذ خلال أيام معدودات وذلك مقارنة بما صرفته بالأمس قفزت من على السرير مسرعاً قبل أن يحاصرني شبح الخوف وتشبثت أحلامي في الرسالة التي كنت أحملها من الأب لأوصلها لأبنه الذي يعمل بفندق شيراتون.

خرجت برفقة بعض أعضاء الفوج بينما كان عبد الحميد ما زال يغط النوم تنجح محاولتي في إيقاظه.

وعند وسط المدينة تفرقنا وسألت عن فندق شيراتون ولحسن الحظ كان يبعد خطوات من مكاني فاتجهت إليه دون أدنى مشقة ودخلت إلى المطبخ ورأيت عدد كبير من المصريين يعملون به وسألت عن صاحب الرسالة فدلوني عليه وحضر واستقبلني استقبال غير عادي مهنئاً بسلامة وصولي وكأنه يعرفني منذ زمن وحين عرفته بنفسي وأعطيته الرسالة.

إصطحبني لفرقة العمال وجلست بالأنتريه ريثما يقرأ الرسالة وطلب لي عصير مثلج وكنت مبتهج ومسرور من الفخامة التي تحيطني وأيقنت بأنني سأنضم إلى عمال هذا الفندق.

وبعد أن قرأ الرسالة اتجه ناحيتي وسأل: متى وصلت؟

- بالأمس.

- أين تقيم؟

- بالأكتف.

- وما سبب حضورك؟

- أبحث عن فرصة عمل وأرجو أن تساعدني فيها فأجابني بحده والله يا أخي لا أعرف ماذا أقول لك ولكني مضطر.

- العمل هنا الأن صعب للغاية لأنك لا تحمل تصريح عمل.

- لقد رأيت عدد كبير من المصريين هنا وأنت تعمل هنا أيضاً.

- أيوة هذا الكلام كان قبل ١٩٧٣ الدانمارك كانت بترحب بأي أجنبي يحضر إليها وتعطي له فيزه وتصريح بذلك إذا رغب وكلنا حصلنا عليه بعد وصولنا في ١٩٧٢ أما الآن فالدانمارك بتعاني من البطالة وتريد أن تحافظ على دخل الفرد فيها ووجدت أن الأجانب لا يغادرون أراضيها مما سبب لها المشاكل.

- وأوضح أنه قد صدر قانون يحرم اشتغال الأجانب بدون تصريح والتصريح لا يستخرج إلا إذا كانت الفيزه القادم بها الأجنبي فيزه عمل أما الفيزه السياحية فلا تسمح له على الاطلاق ولو حصل وصاحب عمل شغل أجنبي دون تصريح يغلق محله ويدفع غرامة كبيرة. وأنا لا أستطيع أن اشغلك هنا لأن البوليس بيقوم بحملات تفتيشيه كل فترة.

- لم أر بعد هذه الإجابة الواضحة سبباً لبقائي فشكرته ودعته وخرجت.

- فقدت أول فرصة عمل كنت أتخيل الحصول عليها حتى وأنا في الطائرة بيني وبين نفسي سرت بقرف في اتجاه محطة السكة الحديد

لأخذ حقيبتي أعود بها للأكتف وأفكر في خطواتي التالية ففوجئت بأحد المصريين يقترب مني ويحيني ويقول: أخبار مصر إيه؟

- بتسلم عليك وعلى خير ما يرام.
- هل معك جرائد أو مجلات مصرية؟
- أيوة.

وناولته بعضها فأخذها بلهفة ثم سألني: أخبار الفول إيه؟.

- أترغب في علبة؟.

فأخرجت علبة وناولتها له فأخذها وهو ينظر لي في سعادة ويتمنى اللحظة التي يختلي فيها كوليمة دسمة وأجابني مبرراً سبب اللهفة: تعرف أنا ما أكلتش فول من أمتى؟. سنة تقريباً.

- اللي يسمعك عندنا يفكر إنك بتتكلم عن اللحمة.
- حقيقي البني آدم ميعرفشي قيمة الحاجة إلا لما يبعد عنها.

ثم أضاف متسائلاً: أنت أتيت تبحث عن عمل في فترة أجازتك؟

- بالضبط.
- يؤسفني أقول لك إن الدنمارك كانت بترحب بأي أجنبي، لكن الأن، بوليس الأجانب لا يسمح لأي فرد بالبقاء في المملكة لأكثر من مدة الفيزه السياحية.

أردت أن أضع يدي على فمه حتى لا أصاب بالغثيان.

وسرعان ما شعر بذلك، فحاول أن يخفف عني هول هذه الصدمة فأخرج لي رقم تليفون وعنوان وقال لي: أنني أعمل في أوتيل وسوف أحاول العثور لك عن فرصة عمل فيه اتصل بي الساعة الرابعة عصراً لأبلغك عما فعلته.

وأخذ علبة الفول ورحل.

كوبنهاجن تبتسم

وقفت وعلى شفتي ابتسامة خيل لي بأن هذه الكلمات الأخيرة كانت ثمن علبة الفول.

وعدت إلى الأكتف لتعاودني آثار التعب من رحلتي الطويلة فدخلت إلى غرفتي وعيناي متيقظة كما هي وكأنهما تترقبان المجهول.

وما هي إلا لحظات حتى عاد أصدقاء المحطة وهم: جميل ويوسف وظريف منهك القوى من جراء البحث عن عمل دون جدوى.

أما الشيخ عبد الحميد فلم يكن له أي أثر ويبدو أنه استيقظ متأخراً وما زال يجوب الشوارع بحثاً عن العمل إلى أن اقتربت الساعة من الثالثة فاقتنعت نفسي بأنني لابد وأن أتصل بهذا المصري من الساعة الرابعة كما وعدني كمحاولة لن تضرني فنزلت بأنتريه الأكتف بجانب التليفون وأعطيت الرقم للمسئول ليضرب الرقم ويعطيني السماعة ليرد على هذا الشاب بقوله: أما زلت تحتفظ بالعنوان؟

- طبعاً.

- أركب أي تاكسي وأعطي له العنوان وسأكون في انتظارك أمام الفندق.

وما أن وضعت السماعة حتى أصبحت كالمجنون فهرولت إلى حجرتي أغير ثياب وزملائي ينظرون لي وكأنما اعتقدوا أن ثمة لوثة اصابتني وخرجت دون أن أتكلم معهم لأستقر بأحد التاكسيات المرسيدس التي انطلقت بي للعنوان.

وأنا أقرأ كل الصور التي أحفظها داعياً الله أن حقق لي فرصة العمل ولا يكون شيئاً آخر غير ذلك.

شاهدت المصري عبر زجاج السيارة وهو ما أن لمحني حتى أشار للتاكسي بالوقوف ولم أهتم بما طلبه سائق التاكسي من أجرة فأعطيته كل ما معي.

ودخلنا معاً إلى الفندق الذي ينطق من الأبهة والفخامة والموسيقى الناعمة تنطلق في عذوبة بأرجاءه كان يسبقني وأنا وراءه إلى أن دخلنا إلى غرفة صغيرة وقال لي: أيه رأيك أنت ستعمل هنا، كل ما عليك أن تضع هذه الأطباق والكاسات بماكينة التنظيف هكذا.

وبدأ يدير الماكينة ويشرح لي أسلوب علمها وتركني أعيد ما قام به ثم قال: عظمة. فقلت له:

أنا متشكر جداً وسوف أكون عند حسن ظنك.

- سوف يكون راتبك بقدر عدد ساعات عملك. النظام هنا بالساعة. على العموم بعد إنتهاء عملك سوف أمر عليك لأخذك بسيارتي إلى الأكتف.

إصطحبني إلى البدروم ليعطيني ملابس الفندق فبدلتها على الفور وأسرعت إلى غرفة الغسيل أقوم بعملي بهمة ونشاط وكل حيوية وصفاء بفعل الموسيقى الناعمة التي تتسلل إلى عملي.

كانت الغرفة لها بابين الأول على صالة الكافتيريا والثاني على صالة المطبخ المدهشة بكل ما فيها من ماكينات وأفران كهربائية حديثة والطباخون بملابسهم البيضاء وقبعاتهم الطويلة المنبعجة من أعلى يقف كل منه أمام تخصصه.

واستمريت بنفس النشاط الذي دب في سائر أعضائي واقفاً على قدمي ما يقرب من ٨ ساعات لم أشعر خلالها بأي ألم أو تعب بل كانت السعادة تلفني من كل جانب إلى أن جاء أحمد أمين وابتسامة الفرحة على ثغره من إدراكي للعمل ونظافة المكان ونقل الأطباق إلى أماكنها بدون أي عرقلة وحين اقتربت الساعة من الثانية عشر مساءً قال لي: اذهب غير ملابسك وأنا في انتظارك بالخارج.

وما هي لحظات حتى كنت أستقل سيارته وهو يقوم بتعريفي للشوارع التي نمر عليها وحدد لي محطة أتوبيس (هليرود) سآخذ منها الأتوبيس رقم ٢٧ بعد وصولي إليها بالمترو من وسط المدينة بمحطة إستربورت القريبة من الأكتف.

قال لي: أتستطيع أن تكون في الفندق الساعة ٨ صباحاً؟

- بالتأكيد إن شاء الله.

ثم أنزلني أمام الأكتف وودعني وسار بسيارته.

ونقل الأطباق إلى أماكنها بدون أي عرقلة وحين اقتربت الساعة من الثانية عشر مساءً قال لي: اذهب غير ملابسك وأنا في انتظارك بالخارج.

وما هي لحظات حتى كنت أستقل سيارته وهو يقوم بتعريفي للشوارع التي نمر عليها وحدد لي محطة أتوبيس (هليرود) سآخذ منها الأتوبيس رقم ٢٧ بعد وصولي إليها بالمترو من وسط المدينة بمحطة إستربورت القريبة من الأكتف.

قال: أتستطيع أن تكون في الفندق الساعة ٨ صباحاً؟

- بالتأكيد إن شاء الله.

ثم أنزلني أمام الأكتف وودعني وسار بسيارته وصعدت لغرفتي لأجد أصدقائي يغطون في نومهم وكان عبد الحميد بينهم فنت أنا الآخر دون أن يشعرون بي.

انفرجت عيناي الساعة السادسة صباحاً بمفردهما وكأنهما مملوءان كالمنبه للانفراج في هذه الساعة بالضبط ونهضت أرتدي ملابسي بينما كانت السمفونيات الكلاسكية تتصاعد من أصدقائي وهم يغطون في نومهم لأنطلق إلى الفندق بكل سهولة ويسر بفعل إرشادات أحمد أمين إلى أن وقفت في غرفتي أمارس عملي بنفس الهمة والنشاط حتى أحسست بأن شخصاً ما دخل غرفتي فالتفت ورائي لأجد فتاة بملابس الفندق البيضاء فارعة الطول ذات وجه وعيون ساحرة سحرتني وأنا أتطلع لها وعلى وجهها ابتسامة صافية.

ولكني فجأة أصابني توجس وحذر شديد حينما لاحظت السلسلة المتدلية من عنقها إلى صدرها الناهض لأنها كانت تنتهي بنجمة داود السداسية فأدركت أنها إسرائيلية بينما نظرت لي بود بالغ كزميلها في العمل وألقت تحية الصباح وأخذت بعض الأطباق وعادت إلى صالة المطبخ.

بعدها دخل شاب مصري عرفني باسمه سليمان وبأنه متخصص في غسيل أواني المطبخ فقط وتعرف علي ثم دعاني لتناول الشاي فشكرته حتى أواصل عملي إلا أنه أصر وقال لي: نظام العمل هنا هكذا.

لابد من أن تأخذ الشاي بعد ساعتين عمل ثم تواصل عملك لتعود بنفس نشاطك الأول حتى لا تهمل.

ثم اصطحبني ليدخلني صالة المطبخ وفي ركن قصى كانت هناك طاولة وجدت معظم العاملين ملتفين حولها والفتاة اليهودية تقوم بسكب الشاي في

أكوابهم وسليمان يفجر الضحاكات فيهم وأنا لا أفهم ما يضحكهم فكنت أضحك على ضحكهم وهم يعاملون بعضهم بود وبإحترام لا فرق بين كبير أو صغير.

بعد تناول الشاي عدت لعملي بنفس النشاط الذي بدأت به يومي ولاحظت أن صواني الكافتريا تعود بنفس كمية الأكل التي تقدم ويلقى بها في السلة فاحتفظت بعلب المربى الصغيرة وقطع الزبد.

وحين انتهائي من عملي تناولت وجبة الغذاء وكانت عبارة عن: بطاطس محمرة وقطعة كبيرة من اللحم ورغيف توست صغير وزجاجة عصير تفاح.

كرونة في الساعة

وعدت إلى الأكتف لأجد زملائي مصابين بحالة من الضجر الوقت يمر وهم لا يجدون أي فرصة عمل وحاولت أصبرهم وأخرجت لهم بعض المعلبات والزبد التي حافظت عليها قبل أن تلقى في السلة فشكرني ولمح أحد فيهم اسم الفندق على علبة المربى وسألني: هل هذا الفندق الذي تعمل فيه؟

فقلت له: أيوه.

فأضاف: هو بعيد عن هنا؟

- باركب له مواصلتين.
- ولكن كيف وجدت فرصة العمل فيه؟
- في الحقية تعرفت على شاب مصري اسمه أحمد أمين بمحطة السكة الحديد هو الذي شغلني فيه وكانت معرفة سطحية ولكن القدر تدخل وأبحثوا وأكيد سوف تجدوا الفرصة.

واستأذنت لأذهب إلى غرفتي لأنام حتى أستطيع مواصلة عملي باكراً أما الشيخ عبد الحميد فقد علمت أنه أصبح له طقوس غريبة بعد أن يئس من البحث عن عمل وذهب إلى مدينة الكريستينا مدينة الهيبز يقضي فيها معظم وقته ولا أحد يدري ما الذي يفعله هناك.

كنت ألمح فرنشيسكا وهي أسبانية الأصل حين تدخل بسيارتها الصغيرة إلى الحديقة الخلفية للفندق من الشباك الصغير المطل عليها وفي ثواني تكون قد تهيأت للعمل وتمر على جميع الأقسام للاطمئنان عن سير العمل باعتبارها المديرة.

وبالرغم من أن وجهها كانت تختلط فيه الجدية مع الهدوء إلا أن ألفة ما ربطتني بها وجعلتني أنفذ ملاحظاتها بكل دقة فكانت تبتسم من أدراكي لهذه الملاحظات بسرعة وتظل بعيدة عني لأنها مطمئنة لحسن سير العمل في غرفتي إلى أن يأتي أحمد أمين ليطمئن عني أو يكلمني بالتليفون المعلق على حائط غرفتي لأطمئنه عن سير العمل وكان نبهني إلى تنفيذ كل ملاحظات فرنشيسكا حيث أنها تعطي هذه الملاحظات إلى صاحب الفندق أول بأول.

لم تكن الألفة بيني وبين العاملين بالفندق بل أصبحت أيضاً بيني وبين الشوارع والأبنية المحيطة بالفندق التي أمر عليها وأنا في طريقي إليه حين كنت أتناول غذائي مع أحمد أمين فاجئني بقوله: أيه رأيك في العمل؟

- بصراحة لا أستطيع أن أوافيك بكلمة شكر.
- على العموم تم تثبيت أجرك وستأخذ ١٣ كرونه في الساعة.
- أنا موافق حتى بدون أجر يكفي أنني أعمل في مكان راق مثل هذا.
- بكره عندما تقدم في كوبنهاجن ستنسى هذه الكلمات العاطفية لأن أهلها لا يعرفون غير العمل هو أسلوبهم في التعبير عن الكلمات. أعتقد أنهم متقدمين في كل شيء المهم، الحاجة الوحيدة التي أطلبها منك أنك لا تعرف أحد بمكان عملك حتى لا يتسبب في مشاكل لي ولك.
- بالقطع سأحمل هذا السر أمانة في عنقي.
- وهذا ما أتمناه.
- إتفقنا.

الترحيلات وحكاية عباس

عدت بعد يوم عمل شاق وأنا سعيد إلى الأكتف لأجد معظم أعضاء الفوج مجمدي القسمات، والغضب ينطق بوجوههم.

وعندما اقتربت منهم لأستفسر منهم عما ألم بهم فأجابوني بأسى بأن البوليس قد قبض على سعد من ساعات وهو يبيع منتجات خان الخليلي في الشارع بالقرب من السنترم، ميدان وسط المدينة، وسعد هذا كان من الشباب الأكثر مرحاً بين أعضاء الفوج لأنها كانت ثاني مرة يحضر فيها إلى كوبنهاجن ولهذا تولى جمع منتجات خان الخليلي وقام بافتراشها في أحد الشوارع لأنه اعتقد بأنها أسرع وسيلة للكسب وتعويض ثمن الرحلة.

ولم يكد الجميع يلتقط أنفاسه حتى دخل زميل آخر بخبر جديد أوقع الحسرة في القلوب لأنه قال بأن البوليس قبض على ناجي أثناء خروجه من العمل الذي التحق به.

إنفزعنا عندما سمعنا هذا الخبر وأدركنا أن الحرب قد نشبت بيننا وبين البوليس.

وعلى الفور اتفقنا على شفرة خاصة ننبه بها بعض لوجود البوليس. حتى نأخذ حذرنا فاتفقنا على أن نسميه عباس حتى لا ينتبه أي شخص آخر ما نقصده. فكان يكفي أن يطلق أحدنا هذه الشفرة وهو يقول عباس حتى نلوذ بالفرار وكأننا نذوب مع الريح وبالرغم من هذا الحذر وهذا التيقظ إلا أن البوليس كان يقبض على ما يقرب من ٤ أو ٥ أعضاء من الفوج يومياً ويرحلهم إلى مصر.

وأثناء عودتي من عملي في إحدى المرات استقل الأتوبيس معي شاب مصري عرفني باسمه أمين طالب بكلية الطب كان عائداً من السفارة الانجليزية التي رفضت إعطاءه الفيزة لدخوله لأنها طلبت منه أن يأخذها من مصر فكان ناقماً عليها لأنه لم يأتي إلى الدانمارك إلا ليدخل انجلترا عن طريقها وتصور أن السفارة ممكن تعطيه الفيزة بسهولة فكان العكس كان الشاب طيب ووديع فأخذت أخفف عنه هول الصدمة إلى أن وصلنا إلى السنترم.

وما كدنا ننزل من الأتوبيس ونخطو بميدان السنترم حتى فوجئت بسطه وصديقه يرفع يده لي ملوحاً من بعيد وجرينا نأخذ بعض بالأحضان والقبلات لأنها كانت مفاجئة سعيدة لم أكن أتوقعها وجلسنا على مقاعد الميدان أمام نافورة ضخمة نسأل عن أحوال بعضنا وعلمت أنه عمل فترة مع صديقة ثم طردا الاثنين معاً ولجئا إلى الأكتف لينضموا إلى باقي الفوج.

وسألني عن عبد الحميد فقلت له بأنني لم أراه إلا وهو نائم صباحاً أو مساءً لأنني اشتغلت ففرح طه ودعى لي بالتوفيق وأثناء الحوار فوجئنا بأحد زملائنا من الفوج يأتي ناحيتنا ويسأل عن زميل آخر فقلنا له بأننا لم نراه فكان متواتراً وقلقاً فسألناه عما يفزعه فقال تتصوروا أترك معاه رغيف عيش وألبي بعد حاجاتي ثم أعود فلا أجده وفر بالرغيف.

وما هي إلا دقائق حتى ظهر من يسأل عنه فاتجه إليه وحين عاتبه اشتبكا في عراك حاد حاولنا تهدأته ولكن دون جدوى مما تسببا في شد انتباه المارة بالميدان إليهما وما هي لحظات حتى سمعنا من يقول عباس.

عباس ؟.

فأطلقنا ساقنا للريح حتى اختفينا من الميدان تماماً بمجرد أن بعدنا عن الميدان السنترم عرض علينا طه الذهاب لمدينة الكريستيانا لمشاهدتها فوافقناه.

واتجهنا صوبها لنبعد عن البوليس.

الهيبيز في كريستيانا

وفي خلال عشرة دقائق كنا أمام مدينة الكريستيانا التي تعتبر نقلة حضارية من حضارة القرن العشرين إلى ما يشبه القرون الأولى، فالكل يفعل ما يحلو له ببدائية فأغلب قاطنيها من الهيبيز الذين تخلو عن ملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم وعن حضارتهم، وأرادوا أن يتمتعوا بحياة بدائية فاتخذوا من منطقة الغابة مكاناً يستقلون فيه عن المدينة.

ويبدو أن هناك اتفاق غير مكتوب بين الحكومة وبين هؤلاء الهيبيز فكل شيء مسموح بالمدينة باعتبارها مستقلة على ألا يمتد نشاطهم خارج حدودها.

وهناك سيارة شرطة تقف على باب المدينة لملاحظة أي خرق لهذا الاتفاق.

وباب المدينة يشبه حدوة الحصان المفتوح، تستقبلك بعدة ساحة هي السوق الذي يبيع أغرب المعروضات التي لا تجد مثلها إلا داخله من أول الآثار الفرعونية إلى المشغولات الإفريقية اليدوية إلى السلاحف والصقور والبغبغان والصنادل الجلدية الرومانية وغيرها.

وكل بائع يقف على معروضاته بملابس تشبهها ويحاول شد انتباه رواد المدينة بأغرب ما يعرضه بينما التف جمع من الرواد حول شخص وقف على صندوق يخطب فيهم بلغة هي أشبه بإطلاق نكات عن فلسفة الحياة كما يتصورها وهم لا يستطيعون إيقاف موجات الضحك التي تنتابهم من أعماقهم في مقابل ما يجودون به عليهم كالحاوي عندنا وما لبثنا أن تقدمنا بعد هذا الجمع حتى تلقفنا سماسرة الكيف وهم يظهرونه ويحددون مظهره سواء أكان

تركي أو أفغانستاني سرعان ما يتركوك ويذهبون إلى غيرك حينما يستشعرون عدم رغبتك في مجاراتهم.

دخلنا إلى المدينة فوجدناها عبارة عن غابة أشجار وتلال عشبية خضراء تحوطها البحيرات من كل جانب ترتبط ببعض عن طريق كباري خشبية متهالكة مربوطة بالحبال، بحيث يجب أن تكون حذراً وأنت تخطو عليها.

تقدمنا أكثر لنجد بعض صناديق الفاكهة وأفرع الأشجار قد رصت بعناية وصنع منها بعض الأكواخ المنتشرة على هذه التلال وبعض من النسوة يقلبن طهيهن على الكانون الذي أعدوه من الحطب والأخريات تجمعن الفاكهة من على الأشجار بينما الرجال يقومون بتضفير الحبال وجمع الحطب.

والكل يفعل ذلك دون أن تكون هناك ورقة توت تستر جسده. فكان شيئاً عجيباً نتأمله وكأننا في رحلة المليون سنة قبل الميلاد حين ظهر البشر على الأرض. وأخذوا يتعاملون مع الطبيعة ليطوعوها لأبنائهم. إلى أن لفت نظر طه فتاة كانت تلتقط التفاح والبرقوق من على الأشجار بجانبي الطريق الترابي الذي كنا نسير فيه وتضعه في سلتها وهي تشق طريقها كما ولدتها أمها.

فأثارت طه وصمم على التعارف عليها. دلف وراءها بينما تسمرنا في المكان ننتظر لنرى ما سوف يفعله.

وهي ما أن جمعة فاكهتها واتجهت صوب كوخها حتى استقلت على كرسيها الخشبي يشرف على ماء البحيرة. فدنا منها طه وحاول أن يكلمها ويبدو أنها فهمت نظراته فصرخت فيه.

وإذا برأس آدمية كثيفة الشعر تخرج من ثقب الكوخ ولا يظهر منها سوى بريق العينين ثم كلب ضخم يشبه الفيلة ينطلق نحو طه الذي أطلق ساقيه للريح

عائداً لنا وهي كانت تصرخ في الكلب بأن يتوقف ونحن نكاد نهلك من الضحك.

وما أن أطمئن طه لبعده من الكلب وأصبح آمن حتى هدأت أنفاسه وأخذ يصلح ملابسه وهو يقول: يا أنا يا هما.

فقلنا له: هما مين؟.

- نسوان الدانش.

فضحكنا وقلنا له: عمرك ما حتحرم أبداً.

الشيخ ... ونسوان الدانش

صعدنا وهبطنا عبر الوديان الترابية التي كان يغطيها العشب نستمتع بمنظر هذه الغابة الأوربية المشذبه.

ونحن نلتقط البرقوق المتدلي من الأشجار على جانبي الطريق نشاهد أغرب ما تستطيع أي عين أن تراه.

إلى أن شاهدنا مجموعة ملتفة حول سبورة ويقف أمامها من يكتب لهم ويشرح.

اقتربنا منهم لنفاجئ بالشيخ عبد الحميد وهو يقوم بتدريس اللغة العربية لهذه المجموعة.

فنادينا عليه، ما أن أبصرنا حتى اتجه ناحيتنا يأخذنا بالأحضان والقبلات وفهمنا منه بأنه تعرف على هذه المجموعة التي أرادت أن تتعلم منه اللغة العربية في مقابل أكله. وما يعطيه له البعض منهن من كرونات يدفعها مقابل نومه بالاكتف. أفضى لنا الشيخ عبد الحميد بهذه المعلومات حين جلسنا مع هذه المجموعة بعد أن تعرفنا عليهم.

ولاحظنا وجود فتاة في السادسة عشرة من عمرها تهتم بالشيخ عبد الحميد. وتلمح من عينه ما يريده فتصدع له على الفور. وفي دقائق كانت تعد لنا أكواب شاي.

ويبدو أن هذه الفتاة هي التي عرفت الشيخ عبد الحميد بهذه المجموعة حين وطأ الكريستيانا بمفرده اعتقدت في شكله وملبسه بأنه قادم من كوكب آخر.

فأرادت أن تصدق حدسها فتعرفت عليه وعرضت عليه تعليمها اللغة العربية فوافق. وانجذب إليهما عدد من مستوطني الكرستيانا.

ويبدو أن هذا العدد سوف يتزايد للتعرف على الشيخ عبد الحميد من قرب، كلنا نستمع منه هذه الحكاية ونحن منبهرين وسعداء. لأنها الوسيلة الوحيدة التي أنقذت الشيخ عبد الحميد من عباس ومن الجوع الذي كان يتهدده إذا استمر بمفرده دون عمل.

استأذناهم وودعنا الجميع وطوقنا الشيخ عبد الحميد وتمنينا له التوفيق.

ووعدناه بزيارته كلما سمحت ظروفنا، واتخذنا طريقنا عائدين.

وصلنا الأكتف بعد أن أسدل الليل ستارته على المدينة.

على سطح البحيرة .. يرشف الحمام

لن أستطيع وصف السعادة التي غمرتني وأنا أمد يدي وأقبض أجري من أحمد أمين بورق البنكنوت الدانماركي الأخضر الطازج.

لم تكن مبعث هذه السعادة لكميتها بالتأكيد، وإنما لإحساسي بشعور سري في نفسي وإحساساً بالقيمة التي أصبح جهدي يقدر بها فمنذ هذه اللحظة أصبحت شيئاً بعد أن كنت فراغاً لحظة جعلت عيناي تومضان بالفخر والسعادة.

جعلتني أوقن بأن عملي أسبوعين آخرين كافيين لتعويض ثمن الرحلة التي كانت قيمة ما أتمنى في هذه الفترة، حتى أعود مرفوع الرأس أردهم لوالدي اللذين لم يبخلا بها، وأدحض معتقدات معارضي هذه الرحلة عندما اقترحتها.

إستقليت الأتوبيس عائداً وتوقف بي كالعادة في السنترم الذي وقفت أتأمله وأتمتع بروعة جماله الخلاب.

فالسنترم هو الميدان بوسط المدينة ينقسم إلى قسمين فسيحين تحوطه من كل جانب المباني الكلاسيكية ذات اللمسة الفنية الأوربية البديعة التي ما زالت محتفظة بطابعها العمراني منذ عصر النهضة.

ولذا فالأبهة والفخامة التي تليق بعظماء هذه الفترة ما زالت واضحة عليها وخاصة بمبنى البلدية. يتوسط كل قسم أو كل مربع من الميدان نافورة رخامية ضخمة يعلوها أحد العظماء وينتشر الحمام الأليف فوق ثراها وتحوطها مقاعد خشبية ذات لون أزرق قاتم يركن إليها معظم المارة وخاصة الأجانب يسترخون عليها.

مستمتعين بهذا المنظر البديع أمامهم يتسلى البعض منهم بتطعيم الحمام الذي كان لا يتردد في الوقوف على رؤوسهم أو أكتافهم وكأنهم أصدقاء من زمن طويل.

والبعض يعبق صدره بالروائح العطرة التي تفوح من الزهور الملونة المنتشرة في أحواضها البلاستيكية بجوار المقاعد أو حول النافورة التي تندفع المياه بقوة من باطنها لتسيل بأشكال هندسية في صحنها الرخامي الضخم الذي يبدو كالبحيرة التي تتجمع الطيور على شواطئها منعمين بالهدوء المخيم على الميدان المملوء بآلاف السيارات المتنوعة.

ولكن قمة الحضارة جعلت سائقي السيارات يقودون في إشارات المرور التي كانت توفق بين رغباتهم فلم يكونوا في حاجة أبداً لإطلاق أي كلاكس ولو تنبيهي شيئاً عظيماً يجعلك تؤمن بأن الأخلاق هي مبعث الحضارة.

وما إن تأملت هذه الجنة الصغيرة حتى وجدت أمين يجلس على أحد المقاعد فاتجهت إليه وبعد أن رحب بي جلست بجواره أسترخي في هذه الجنة الصغيرة مستمتعاً بالحمام الطائر حولنا وحول النافورة الذي ما يلبث أن يتجمع معاً ويدنو مناوراً من فوق رؤوسنا ليصعد سابحاً في الفضاء إلى أن يعلو إلى سطح الأبنية المحيطة بالميدان ليستقر فوقها وهو ساكن يرمق الميدان بعيونه اللامعة إلى أن يخيل اليك أنه أصبح قطعة فنية ساكنة بمعمار الأبنية ظللت أتأمله متمتعاً بجمال عيونه اللامعة.

وفجأة رأيت الحمام ينزل شارعاً أجنحته إلى أن توقف على صحن النافورة يرتشف من بحيرتها وإذا بأيمن يقول: إيه برأيك في التليفولي؟

- مدينة الملاهي.

- أيوة ؟.

- نسهر فيها الليلة.
- فكرة رائعة ولكن يجب أن نذهب إلى البوسطة أولاً حتى أرسل خطاب إلى أهلي.
- ما احنا حنروح الساعة السابعة ودلوقت الساعة الرابعة ونصف يعني تقدر تروح مصر وتيجي مش ترسل خطاب بس.
- اتفقنا.

كتبت أول خطاب لوالدي أطمئنهم فيه على أحوالي وتأسفت عن تأخر رسالتي هذه إليهم لأنني وددت ألا أكتب إليهم إلا بعد أن أعثر على عمل حتى أطمئنهم أكثر وأخبرتهم بأنني في خلال أسبوعين على الأكثر سيكون معي ثمن الرحلة بالكامل بخلاف الهدايا والأشياء التي أتمنى أن آخذها إليهم وأرفقت الرسالة بكارت لصورة طبيعية من الجو لكوبنهاجن وتمنيت أن يكونوا معي في هذه الجنة الرائعة وختمت الرسالة بالسلامات المعتادة وألقيتها في صندوق البريد.

التيفولي ... مدينة ملاهي

وصلنا إلى التيفولي الساعة السابعة مساءً فوجدنا الأعلام الدنماركية الحمراء ذات الصليب الأبيض الممتد إلى أطرافها.

ترفرف مع النسمات الخفيفة المنعشة بفخر واعزاز وكأنها تشير لجنة أخرى من جنات الدنمارك الرائعة.

واستقبلنا على الأبواب مضيفو المدينة بوجوههم البشوشة بحللهم السموكن المميزة بشعار التيفولي يرحبوا بنا وما أن دخلنا إليها حتى وجدنا أنفسنا في مدينة أخرى متلألئة بثياب ضوئية باهرة تتميز بالأناقة والرشاقة وكأنها عروس الدنمارك. فوقفنا مشدودين لكل جزء من أجزائها متعجبين من الاتقان الحضاري الذي تبدو به.

وأشد ما بهرني في هذه المدينة هو المسرح الصيفي الذي انحبست فيه أنفاسنا بفعل الحركات الخفية التي أوقفت قلوبنا عدة مرات من أدي حاوي شاب إيطالي ليعود ليفجر الضحكات في أعماقنا.

خرجنا من المسرح لنقف بإجلال نحي حرس الملكة في موكبهم المهيب وهم يتجولون داخل المدنية تتقدمهم فرقة الموسيقى الملكية بمقطوعتهم النظامية وايقاعتهم النحاسية يبدون كحرس باكنجهام بانجلترا.

ولكن ما أن تفحصنا وجوههم حتى أدركنا أنهم فتية في العاشرة من عمرهم. فكان شيئاً مضحكاً، ومرقت بجوارنا، وسيلة نقل المدينة التي تنقل الزوار من مكان إلى آخر.

فحركت فينا الشوق والحنين لمصر ووقفنا فرحين لرؤيتها لأنها كانت عبارة عن طفطف أنيق فخم ذكرنا بطفطف رأس البر.

وما أن تقدمنا إلى داخل المدينة حتى سمعنا صرخات وإستغاثات مدوية فاندفعنا إلى مصدرها لنجد بيت الرعب الذي تختلف فكرته عن أي بيت رعب بأي ملاهي أخرى لأن الداخل في هذا البيت يدخله عن طريق مركب وما أن يجلس فيه حتى يندفع به بقوة ليسقط من علو فيرتطم بماء بحيرة يدفعه تيارها القوي إلى الداخل، وما يكاد المركب أن يسقط في البحيرة حتى ترتفع صرخات الجالس يخيل إليه أنه سيستقر في قاع البحيرة. وفي الحقيقة لم نتمكن من دخول هذا البيت ليس خوفاً أو ذعراً ولكن لأن تذكرته لم تكن نقودنا تتحملها وقتئذ.

حماقة في كوبنهاجن

عدت أنا وأيمن بعد هذه الأمسية الرائعة ونحن في قمة السعادة نتبادل القفشات والضحكات ونحاول تثبيت ما رأيناه بأذهاننا حتى لا نعتقد بأنها ليست سوى خيالات انتهت بمجرد خروجنا.

وعندما دخلنا الأكتف ودنونا من صالة الاستقبال حتى سمعنا صرخات تنبئ بكارثة. فاعتقدنا أن البوليس فعل شيئاً آخر.

ولكننا سرعان ما اكتشفنا أسباب هذه الضجة خناقة بين أصدقائي الثلاثة يكيلون لبعضهم السباب بأقذع الألفاظ وما أن اقتربنا حتى علت صرخاتهم وهم يوجهون الخيانة لبعضهم.

وحاولنا تهدأتهم ولكني فوجئت بأحدهم يقول لي: أنا لم يكن لي ذنب فيما حدث.

ورد جميل: ولا أنا. نحن كنا مدفوعين.

وقال يوسف: هم الذين أضاعوا فرصة عمري.

ورد ظريف يصعقني وهو يقول: يوسف هو الذي شجعنا للذهاب إلى أحمد أمين.

واستطرد يوسف قائلاً: أيوة أنا رحت لأحمد أمين لكن هما اللي بوظوا الخطة.

واستمر يشرح لأيمن: احنا اتفقنا نروح نسأل عن شغل عند أحمد أمين وانني سأدخل أولاً إليه وينتظرني جميل وظريف في الخارج وفعلاً دخلت إلى

الأوتيل وقابلت أحمد أمين الذي رحب بي وعندما سألته عن شغل لي قال هل أنت لوحدك فقلت له أيوة فأشار لي بالجلوس وما أن جلست حتى دخل جميل يسأله عن شغل فنظر إلينا وفهم أننا متفقين مع بعض وما لبث أن يشير لجميل بالجلوس حتى دخل ظريف فوجد الرجل نفسه أمام اتفاقية منظمة عليه وأحببت أن أصلح الموقف فقلت له بأنني لا أعرفهم وأن فؤاد هو الذي أرسلني إليك فرد كلاً من ظريف وجميل بأن فؤاد أرسلهم أيضاً.

وهنا لم يملك الرجل أعصابه وبدأ يسب في فؤاد وفينا وطردنا شر طردة على الفور. يبقى مين فينا الغلطان؟!!!

وهنا انفجر أيمن فيهم جميعاً يتهمهم بالنزالة والخيانة أما أنا فلم أنطق بكلمة عتاب واحدة لأن قدماي لم تحتملا الوقوف.

جلست مكبوتاً لا أجد شيئاً أعلق عليه وكنت أتنفس بصعوبة بالغة لأنني أيقنت بأن أحمد أمين سيتهمني بالخيانة. لأنني لم أحافظ على الوعد الذي قطعة على ويعتقد بأنني دفعتهم إليه فعلاً.

أصبح مصيري مجهولاً بعد هذه الخيانة وظللت يقظاً طوال الليل أحاول إيجاد ما يبرر موقفي وظل الشك يساورني.

لم أنم في هذه الليلة الحالكة بفعل كلمات الأنذال الثلاثة التي أخذت تطن في أذنى كالبعوضة القاتلة.

وظللت أبحث عن مرر يساند موقفي أمام أحمد أمين الذي كان طلب مني بألا أبوح لأحد بمكان عملي وكأنه كان يشعر سلفاً بما سيحدث حينما علم بأنني ما زلت بالأكتف مع الأخوة المصريين.

استبد بي القلق بنفسي وغمرني اكتئاب قاتل لم يتبدد كما تبدد سواد الليل وتوهج ضوء النهار واستمرت حالة الطنطنة تلاحقني والأتوبيس ينطلق بي إلى الفندق وأنا ما زلت أبحث عن مخرج لهذا المأزق اللعين.

دخلت بهو الفندق واستقبلني جميع العاملين ببشاشتهم الروتينية وما أن دفعت باب غرفة الغسيل حتى وجدت شاب أشقر يرتدي زي الفندق ويقوم بعملي.

نظر لي باستغراب حينما وجدني أتطلع إليه في دهشة ولم أتكلم معه بل اتجهت على الفور إلى غرفة غسيل المطبخ لأستطلع من سليمان الأمر ففهمني بأنه لا يعرف شيء عن الموضوع وطلب مني أن انتظر أحمد أمين لأهم منه بالضبط وبالفعل انتظرت في غرفة استراحة العاملين والحسرة تملأ قلبي بسبب الغلطة التي ارتكبتها بحسن نية.

دخل أحمد أمين وعلى الفور وقفت لتحيته فقابلني بفتور بالغ. وعندما سألته عن من يكون في غرفتي فأجابني مقاطعاً هذا الشاب انجليزي عُين بدلاً منك لأنه معه تصريح بالعمل.

فقلت: وأنا ؟.

- أنا أسف يا فؤاد حملات البوليس بدأت تشتد ولا أستطيع أن أبقى شخص بدون تصريح بالعمل.

- ولكن لم يكن لي ذنب فيما حدث أقسم لك.

- أعذارك لن تفيد الأن. تعلم أن كوبنهاجن فيها كلمة واحدة فقط. وهنا ترجمة أي شيء بالعمل وليست بالكلمات. على العموم هذه تجربة وتقدر تستفيد منها في أي مكان آخر.

- وهل من السهولة أن أجد مثل هذا العمل الذي أحببته.

- هذه هي مشكلتك أبحث وأكيد ستجد.

- أليس هناك حل آخر أخف من الطرد وأنا على استعداد لإصلاح هذا الموقف.

- لا تسميه طرد ولسنا في حاجة لإصلاح كل ما أستطيع أن أقدمه لك هو رقم تليفوني اتصل بي وربما ربنا يسهل، ولكن لا تحاول أكثر من ذلك، وتعلم أن هنا كلمة واحدة فقط.

فعل ذلك ثم تركني ومضى.

حمام وبحيرة .. ونافورة رخامية

خرجت من الفندق وعلقم مر ينساب ببطء في حلقي والمرارة تكاد تخنقني وأنا أقف أنتظر الأتوبيس الذي لم يكن ينتظره سواي إلى أن جاء وفتح بابه أمامي بالضبط وظل السائق يدعوني بعينه إلى الصعود وأنا مسمراً في الأرض لا أريد فراق هذه المحطة التي بنيت فيها أحلامي بعد كل مرة كنت أخرج فيها من عملي.

ظل ينظر لي وهو متعجب من شرودي وعندما هم بغلق الأبواب رأيت نفسي أندفع أصعد درجاته وكأنني استسلمت لهذا الواقع.

جلست بجانب النافذة أودع الفندق الذي ضاع مني في لحظات وعيناي متعلقة به إلى أن اختلطت الأبنية وعدت من واقعي الحزين لأنزل في المحطة النهائية بميدان السنترم.

ترجلت إلى أحد المقاعد الخشبية استرخي عليها وأجمع شتات نظراتي المبعثرة لأركزها على الحمام وبحيراته في النافورات الرخامية الضخمة محاولاً غسل صدري من الكآبة التي علقت بها بالمناظر الرائعة التي كانت أمامي كما يفعل معظم كبار السن. يسترخون على مقاعد وأرائك السنترم يطعمون الحمام ويتأملون الطبيعة الخلابة وحركة الحياة بالميدان ليقتلوا بها ما يتهدد حياتهم من كآبة ووقت فراغ قاتل.

لم أشعر بأيمن وهو يجلس بجواري إلا بعد أن فاجئني بقوله: سرحان في ايه؟

- أبداً، ذهبت واتفصلت.

- اتفصلت؟.

- أيوة ..

- علسان ولاد الـ وماذا ستفعل ؟.

- أبداً أبحث عن عمل من جديد.

- مستحيل ايجاد عمل بدون تصريح.

- لا يمكن أن يكون مستحيل إذا اتبعنا طريق قانوني.

- وما هو ؟.

- نقدم في جامعة كوبنهاجن للدراسة فيصبح لدينا الحق في الإقامة ومن ثم العمل.

- فكرة رائعة، لو صحت فكرة هايلة.

- وهي نفس الفكرة التي رسمتها في مصر ولا أدري لماذا لم تخطر على بالي هنا.

- لأن الحياة هنا بتنسي أي حاجة.

وما كاد أيمن يكمل هذه الجملة حتى فاجأنا إبراهيم وهو زميل في الفوج بقوله: عباس يا جدعان.

نهضت أنا وأيمن مذعورين وأجبنا في نفس واحد: هو فين؟

- في الأكتف نفدت منه بأعجوبة.

- قبض على حد من الموجدين في الأكتف؟.

وأجاب أيمن على الفور: من الأفضل الهروب من هنا لأن الميدان مكشوف ومن السهل أن عباس يلمحنا.

ورد إبراهيم: وأين نذهب؟.

فأجبت: نذهب إلى الأيرترم صالة الانتظار لأنه لا يمكن أن يشك فينا أحد لأن عباس يعتقد أننا مسافرين أو لسة واصلين.

- فكرة مدهشة.

فتاة صينية بالبلوجينز

بالرغم من الجو المنعش للأيرترم صالة انتظار شركة ساس التي أعددتها لاستقبال القادمين أو الراحلين عن كوبنهاجن بفضل التكييف المركزي والديكور المفعم بالفخامة في كل جزء من أجزائها والجمال المناسب من الحسان المارقات من أمامنا بنعومة ورقة متناهية إلا أن كل منا ذهب في واديه مع مشاكله الخاصة.

فكنت في خلوة مع نفسي أناقشها في داخلي وأقارن لها الحياة التي كنت أتصورها في أوربا وبين الحياة التي أحياها الأن.

موقف يدعو إلى العجب لأنني لم أفعل شيئاً إلى الأن فكل ما إدخرته من عملي سوف ينفق في البحث عن عمل جديد. والرثاء لأنني كنت في حالة لا أحسد عليها.

فهل سأجد العمل كما وجدته في المرة السابقة أم يا ترى القدر يخبئ لي شيء عكس ما أتوقعه كما يفعل معي منذ أن بدأت أفكر في هذه الرحلة.

لم ينشلنا من هذه الوساوس سوى مشهد زميلنا طه وهو يتأبط زراع فتاة صينية رشيقة بالبلوجينز وهما يتأملان فاترينه البارفانات بأحد أركان الأيرترم.

وما أن رآنا طه حتى قدم معها تجاهنا، نهضنا جميعاً ونحن سعداء بهذا المشهد الرائع، نرحب بهما وعلى الفور أشار إليها ثم قال: مدام طه. اسمها يوكومن شنغهاي.

فامتدت أيادينا تصافحها. وعرفنا منه بأنه تقابل معها بمدينة الهيبز الكريستيانا وأحبته من أول نظرة فأحبها.

وقرر أن يصطحبها إلى الأكتف بعد أن يقوما بجولة سريعة لكوبنهاجن.

ثم مد يده يصافحنا فقلنا له: على فين؟

- إلى الأكتف.
- عباس هناك وقبض على مجموعة من الفوج ..
- فأجاب: لا يهمني عباس ولا غير عباس الأكتف هو المكان الذي أعرفه ووعدت يوكو أننا سنأخذ حمام سونا هناك.
- ولكن.
- ولا يهموكو عمر الشقي بقى يا أنا يا عباس في البلد دي.

ثم تبادل الحديث بالإنجليزية مع يوكو التي لوحت لنا وسارت مع طه إلى مصيرهم المجهول.

غصنا ثانية في مقاعدنا ونحن في دهشة من تصرف طه وعدم مبالاته بأي عباس.

نوافذ زجاجية ... وزروق تائه

وسرعان ما عدنا لحال أنفسنا صامتين كأننا ننتظر الفرج القريب أو عسى أن يقدم أحدنا حلاً لما سنفعله خاصة لأن الليل أسدل ستارته على المدينة التي أغلقت معظم حوانيتها.

ونحن ما زلنا في هذه الجلسة لا نتكلم ولا نفكر بينما ظلت عيوننا تتابع الراحلين أو الوافدين عن طريق اتوبيسات ساس التي كانت تقذف بهم إلينا من المطار من الفنية إلى الفنية.

بأشكال وجنسيات مختلفة ما يلبثوا أن يتجمعوا داخل الأيرترم حتى يتفرقوا إلى حيث شاءوا بكوبنهاجن إلى أن توقفت عيناي على شاب أسمر يقترب من الثلاثين كان ضمن مجموعة تخطو لأول مرة داخل الأيرترم وكان نحيفاً متوسط القامة يبدو الإرهاق عليه من الحقيبتين التي يحملهما بكلتى يديه.

شدتني بشرته السوداء ومصرية ملامحه إلى أن أدنو ناحيته وأسأله مصري؟

فرفع إلى جفونه المتثاقلة وأجاب: بالتأكيد.

فتهلل وجهي بالإشراق وقلت: حمد لله على السلامة، أهلاً وسهلاً، أخبار مصر إيه؟.

فأجاب بنفس التثاقل: بخير.

وابتسم ابتسامة طفيفة كأنه يؤكد لي ذلك فعرضت عليه أن يلتقط أنفاسه معنا على الأرائك.

ثم يواصل مسيرته فوافق واستأذن ليضع حقيبته في صندوق الأمانات.

وحينما حاولت إرشاده وجدته يعرف طريقه جيداً ولا يحتاج لأي إرشاد فعدت أدراجي.

وما هي لحظات حتى جاء يدنو تجاهنا فوقفنا ثلاثتنا لنرحب به ونعرفه بأنفسنا.

ثم ارتمى بجسمه المتثاقل على إحدى الأرائك بجوارنا وبينما كانت عيوننا تتفحص ملامحه لنستطيع التعرف منها على شخصيته أو سبب مجيئه حتى فاجأنا بقوله: عاملين ايه مع عباس؟.

اشرأبت أعناقنا وقفزت عيوننا إلى الخارج وأجبناه على الفور: انت عارفه؟.

- مفيش مصري ولا عربي ولا شرقي في أروبا ميعرفشي عباس.
- باستفهام: أنت حضرت هنا قبل كده؟
- في الحقيقة دي ثاني مرة.
- سياحة؟
- وبزنس في نفس الوقت.

كانت المفاجأة التي سببت لي الضحك حينما سألناه عن المكان الذي سيأوي إليه في كوبنهاجن؟

فأجاب: في الأكتف.

سألني عن سبب ضحكي.

فأجبت: لأنه قدر محتوم على كل المصريين.

فضحك هو الأخر ثم ما لبث أن استفسر عن السبب في جلستنا في الأيرترم، فأفهمناه خوفنا من عباس فعلت على ثغرة ابتسامة طفيفة ثم أضاف بثقة: لا يمكن لأي عباس هنا مداهمة أي مكان بعد الثامنة مساءً لأنها ببساطة فترة راحة وهو لا يحب الإزعاج.

التقطنا منه هذه الكلمات كأطواق نجاة تعلقت بها رؤوسنا لتنقذنا. قبل أن تغوص في بحر النعاس الذي بدأ يتهددنا فنهضنا لنسير معه إلى الأكتف دون أي مناقشة.

من على البعد، لاحت أضواء الأكتف المنبعثة من نوافذه الزجاجية المتعددة في طوابقه الثلاثة، وبدأ كأنه المرفأ الوحيد الذي تتلألأ أضواءه أمام قواربنا التائهة المتصدعة.

وما أن اقتربنا منه حتى رأينا زجاج إحدى نوافذه يتطاير ليخرج منه كرسي ليلقى على الرصيف بعد فرقعة هائلة لتضحى أنواره أشلاء مبعثرة.

زجاج مكسور .. وآخر جديد

أوتاد محكمة ربطت أرجلنا بالأرض وراحت قلوبنا تقرع طبولها وكأنها تعلن بدء القتال بيننا وبين عباس في الوقت الذي تجمدت فيه أطرافنا وأصبح ثلاثتنا كتماثيل رخامية شبيهة بتماثيل ميادين كوبنهاجن أما هاني فتركنا وخف إلى الباب الرئيسي يدلف إليه كأنه الفارس المغوار وبديهي أن سبب جرأته هذه نابعة من تأشيرته الطازجة.

وما هي لحظات حتى أتي يطمئنا كسابقته الأولى ويفهمنا بأن خناقة نشبت بين أحد المصريين ومدير الأكتف ولا وجود لعباس بالداخل.

فدخلنا لنرى طه عارياً يصيح ويلعن بالعربية كالديك الرومي وفي حالة ثورة عارمة بينما يحاول بعض المصريين تهدئته والفصل بينه وبين مدير الأكتف الذي كان يقف عارياً هو الأخر برفقة الفتاة الصينية وهي أيضاً عارية تلك التي رأيناها مع طه في الأيرترم.

فطوقنا طه على الفور وأخذناه إلى صالة المطعم لنبعده عن المدير الذي كان مندهشاً من تصرف طه ولا يبدى أي مقاومة وفهمنا من طه بأنه حينما دخل السونا برفقة يوكو دخل ورائهما المدير واقنعها بعمل مساج، تدليل، فوافقت وحين اقترب منها المدير استشاط طه غضباً وأكلته الغيرة فاشتبك مع المدير الذي لم يرى بد من الفرار إلى الصالة الخارجية، فلاحقه طه بالكرسي بينما أعربت يوكو عن سخطها لـ طه ولتصرفه البهيمي فانضمت إلى المدير مما أثار طه أكثر.

وعلى الجانب الأخر كان هاني وبعض المصريين يحاولون تهدئة المدير ومنعه من طلب البوليس ويبدو أن المدير أدرك حقيقة ما فعله وتأثيره على

عواطف طه الشرقية فاستكان ثم سرعان ما عاد إلى عمله وكأن شيئاً لم يحدث أما يوكو فلم يكن لها أثر ويبدو أنها انسحبت قبل أن تحدث جريمة في المكان تتورط فيها.

وقام جميع النزلاء بترتيب الصالة وجمع الزجاج وفي ثوان كان الزجاج الجديد يحل محل المكسور.

وخلعت نظارتها

وعاد الجميع لنشاطه وللسمر بينما حمدنا الله أن الأمر لم يصل إلى حد عباس لننام ليلتنا هذه على خير.

في الصباح، نهضنا معاً نتجه صوب إدارة جامعة كوبنهاجن لشئون الطلبة الأجانب الذي تقع في إحدى الشوارع الضيقة المتفرع من شارع المسير الشهير في قلب كوبنهاجن وهو لا يعبد كثيراً عن المركز الدولي لاتحاد الطلاب المسمى دي أي إس (D I S) عبارة عن شقة في إحدى المباني العتيقة الزاهية الألوان استقبلتنا موظفة الاستعلامات بإشراقة باسمه تتلألأ على ثغرها وكأنها تطمئنا سلفاً عن تحقيق مطلبنا.

فأفهمها أيمن بالانجليزية عن رغبتنا في الالتحاق بالجامعة.

وبدون مناقشة وفي ثوان كانت تُخرج من درج مكتبها استمارتين كطلب التحاق ثم أضافت بأنه يتعين علينا أن نحدد اللغة الأجنبية سواء الفرنسية أو الانجليزية التي سنتعلم عبرها لغة الدراسة الدانماركية المعروفة بالدانش فاخترت اللغة الفرنسية واختار الانجليزية وعكفنا على ملأ بيانات الاستمارة.

ثم أعدناها إليها بعناية.

ثم قالت بهدوء: يجب الأن أن تذهبا إلى بوليس الأجانب.

عباس.

لفظناها في نفس واحد ونحن مجمدين مما أثار دهشتها. فخلعت نظارتها وقالت: ماذا ؟.

فقلنا: نقصد البوليس.

- نعم، لأنه الوحيد الذي سيصرح لكما بالإقامة طوال مدة الدراسة فصمتنا وطوينا الاستمارات.

ووضعناها في جيوبنا وبابتسامة باهتة ودعناها والعرق يتصبب من جباهنا صامتين كالعادة.

وبدون اتفاق رأينا قدمانا تقودنا إلى طريق البوليس وكأنها تريد أن تضع حداً لنهاية اضطرابهما فكنا كالطيور الجائعة التي تلهث وراء شباك صيادها لالتقاط ما فيها من طعام غير مبالية بالشرك طالما أن هناك أمل ولو ١% لانتشال الطعم وإنقاذ نفسها من وطأة الجوع. إما الموت أو الحياة. وهكذا نحن بعد أن لعبت الأحلام الوردية بعقولنا فربما يوافق عباس على دراستنا وبذلك نتخلص من كافة مشاكلنا أو يقبض علينا فتنتهي حياة الخوف والقلق التي نعيش في رحابها.

ويبدو أننا أيقنا بأن حالتنا أفضل من الطيور على الأقل لأنها في النهاية إما رفاهية أو شظف.

مما دفعن إلى الإسراع في الخطى لنكون بعد برهة يسيرة أمام مبنى بوليس قسم الأجانب البني اللون والمكون من أربع طوابق والذي يقبع فيه صائدو الطيور المهاجرة من أجل اصطيادهم وإعادتها إلى موطنها من أجل الحفاظ على مدينتهم قبل أن تتوطن فيها وتتحول إلى مستعمرين تستعمر إحدى أحيائها كما نجحت طيور الصين وأبناء جنوب شرق أسيا في الفوز بأحد أحيائها وهو ما لحظته أثناء تجوالي بأحياء المدينة حين صادفتني الوجوه الصينية الدقيقة وهي تطلع إلى من كل صوب وحدب داخل هذا الحي المعروف بالحي الصيني.

شباك الصيد الناعمة

وبالرغم من ضخامة المبنى وكثرة مكاتبه إلا أننا وصلنا إلى مكتب المسئول عن تصاريح الإقامة في سهل ويسر فلم نكن في حاجة لسؤال أحد حيث وجدنا اللغة العربية تسطع على إحدى اليافطات ترشدنا إليه مما أعاد الثقة في نفوسنا واعتبرنا وجود اللغة العربية هنا أول علامة من علامات الترحيب بنا.

وما أن دخلنا إلى مكتب المسئول حتى وجدناه سيدة رائعة الجمال ترتدي الزي البوليسي وهي متصدرة مكتب فاخر لا يخلو ركن فيه من الزهور وسط ديكور أبيض ناصع يخيل للناظر بأنه في إحدى مكاتب البيض الأبيض الأمريكي.

أشرقت الابتسامة على وجه المسئولة.

ووقفت تحينا بأدب جم فعرفها أيمن بأنفسنا وجلسنا على مقعدين ثم أخرج لها أيمن استمارات الجامعة وشرح لها مقصدنا فابتسمت ابتسامة عريضة كالنهر المتدفق ونظرت لنا بشيء من الترقب ثم قال: لماذا غيرتما رأيكما فجأة من السياحة إلى الدراسة؟.

والترقب ما زال يلمع في عيونها الزرقاء الصلدة. فبادرها أيمن: لأننا لم نكن نتصور التقدم الذي لمسناه في كوبنهاجن وخفنا أن نتركها دون أن نستفيد منها فقررنا الدراسة نحن موافقين على أي شروط.

- حسناً هاك هي شروطنا.

ثم فتحت الدرج وأخرجت لنا استمارتين وناولت كل منا واحدة منهما فاندهشنا لأنها كانت عبارة عن مربعات كل مربع فيها مكتوب بلغة شرقية كالتركية والأفغانية والايرانية والعربية وما أن التقطت عيوننا العربية حتى وجدنا الإجابة التي ننتظرها مطبوعة أمامنا بلغتنا.

وكأن ليس هناك مجال للمساومة أو المناقشة. لأن المعنى العام كان يقطع بضرورة رحيلنا من الدانمارك أولاً ثم بعد ذلك نفكر خارجها في الدراسة وندخل إليها بتأشيرة دراسية ولا يسمح أن تمتد اقامتنا عن يوم واحد من الأيام الخمسة عشر المطبوعة على تأشيرتنا السياحية.

لم يكن لدينا الفرصة في المناقشة بعد أن ثقبت هذه الإجابة قارب النجاة الذي كنا نعتقد بأنه الأمل الباقي من أجل البقاء في هذه الجنة فاندفعت المياه من قاعه وجدرانه تغمرنا وتغطس بأنوفنا إلى الأعماق وأسرعنا بالخروج قبل أن تفيش الحجرة بمياه عرقنا التي خرجت من جلودنا مندفعة كشلالات هادرة بالغضب.

كان أقرب مكان للاسترخاء من مبنى بوليس الأجانب هو المحطة المركزية فاتجهنا إليها لنلتقط فطورنا من السوبر ماركت لنوقف الإعياء الذي بدأ يزحف علينا وفي ثغورنا ابتسامة بالرغم من حالة الكآبة التي بسطت نفسها على وجوهنا كان مبعثها الذكاء الحاد الذي يتمتع به عباس هذه المدينة.

استطاع عباس أن يسد كل منافذ التحايل التي قد يلجأ إليها كل من أراد البقاء في هذه الجنة بفهلوته فجهز كل الاجابات المحتملة بلغة كل متحايل وأغلبهم الشرقيين لتكون رادعاً كافياً وكاشفاً لألاعيبهم بأدب جم وبإحترام بالغ لجبرهم على التنازل عن هذه الأفكار بحيث لا يفكروا في شيء سوى العودة لوطنهم.

التقطنا علب الزبادي بالفواكه والخبز الطازج وركنا في أحد أركان الصالة الرئيسية نتناول فطورنا وتخلل هذا الفطور حديثاً ضاحكاً حول المواقف التي حدثت لنا.

وما أعده لنا عباس بذكاء ولباقة متناهية وحمدنا الله أن المسئولة لم تطلب جوازات سفرنا وتحتجزهم كي تجبرنا على المغادرة ويبدو أن الفطور جدد نشاطنا وغمرنا بحالة من الحماس زادت إصرارنا على إيجاد وسيلة من أجل البقاء في هذه الجنة آمنين.

لون الفراولة

وفجأة، لفتت نظر أيمن دانماركية شقراء بالبلوجينز تخطو من أمامنا وهي شبه سكرانة تغني مع نفسها وتتمايل بخطوات تبدو راقصة يمنه ويسره وبيدها كيساً من الشكولاته.

فوقف أيمن يغازلها غزلاً عفيفاً باللغة الانجليزية.

ويبدو أن كلماته الرقيقة أعجبتها فآتت تمد يدها بكيس الشكولاته وكأنها تحيينا على اهتمامنا بها فأخذنا بعضها بينما ظل أيمن يهمرها بكلمات الإطراء والإعجاب بجمالها الفتان وشدتها تعليقاته الظريفة للجلوس معنا.

كادت تطير من الفرحة حينما عرفت أننا أحفاد خوفو ومنقرع من مصر، التي أفتتح بها التاريخ صفحاته لم تكن سكرانة كما اعتقدنا من خطواتها إنما كانت سعيدة تمارس حريتها بنفسها وتعبر عن هذه السعادة ظلت الضحكات الرنانة تغلف جلستنا.

وكنت أضحك في معظم الوقت بتلقائية ولم أكن أفهم ما يضحكني ويضحكهم.

ولكني انفجرت بالضحك عندما يبدأون به لا يمكن لأي انسان أن يتصور وقتئذ سوى إننا عابثين لا نعرف إلا الضحك ولا يمكن أن نكون تعيسين.

ولم تمر لحظات حتى رأيت فتاة أخرى شقراء تقترب منا ثم تُحينا بابتسامة وتتحدث مع زميلاتها باللغة الدنماركية (الدانش) التي لا نفهمها.

وكانت تجيبها الأخرى بالإنجليزية الأمر الذي جعلنا نفهم بأنها تشدها إلى طريقها.

بينما الفتاة التي كانت معنا تتشبس بالبقاء معنا ولم تجد الأخرى مفراً إلا بالجلوس بجواري في صمت حتى تنتهي الأخرى من دعابتها وتنهض معها.

وأحسست بالصمت أنا الآخر وتوقفت ضحكاتي بينما ضحكات أيمن وفتاته تزداد سخونة ورنين.

ويبدو أن وقار الفتاة الصامتة انتشلني من لعبة الدعابة التي بدأتها زميلاتها فهي تكاد تكون صورة معكوسة لتصرفاتها تبدو جادة في نظرتها وفي طريقة كلامها ذات جمال هادئ متناسق رشيق، من تحت البالطو المفتوح من خلال البنطلون الكحلي والبلوزة البيضاء.

كنت أتأملها في صمت أتأمل شعرها الذهبي الأشقر المصفوف وهو ينسدل مقترباً من وجنيتها المصبوغة بلون الفراولة اليافعة.

أردت أن أشرخ غلاف الصمت الذي احتوانا، فسألتها عن اسمها، وتلاقت عيوني مع عيونها، وقالت: جوليا.

- وأنا فؤاد من مصر.

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وسألتني عن موعد قدومي إلى الدانمارك وعلى الفور قلت لها من أسبوع فقط.

وهي الإجابة التي كانت أعرفها بالإنجليزية سواء تطابق الحقيقة أم لا، ومرت اللحظات بيني وبينها تقربنا من بعض وكانت ما تحاول كثيراً أن تجد العبارات السهلة لتفهمني ما تقصده لأنها أدركت ضعفي في اللغة بل أنها كانت تنادي أيمن ليقوم بعملية الترجمة لجملة أو كلمة تحس من تعبيرات وجهي أنني لا أستسيغها لعدم قدرتي على الترجمة وبدأ الحوار يأخذ طابع الضحك من اللحظة إلى الأخرى والحديث يدور بيننا ولا أعلم من أين يأتي. وبدأ يمتد بيننا وبين أيمن وفتاته.

وظلت القفشات تتصاعد والضحك يزداد على لا شيء والحياة تسري تدريجياً في أوصالنا تزيد وجوهنا توردا نحن الأربعة انقشعت على أثرها سحابة الجدية التي كانت يفصح عنها وجه جوليا وعاد إليها الصفاء والسحر بقسماته المختارة في تناسق رائع.

ويبدو أن الجلسة حازت رضاها لأنها لم تكن تتوقع بأنها ستلقى مثل هذه الحفاوة من التعليقات الظريفة والضحكات المفعمة أو الاندماج معنا فنست ما كانت ذاهبة إليه هي وصديقتها.

ولم يعد يشغلها سوى توصيل معنى الضحكات والقفشات التي كانت تبديها أو التي كان أيمن وفتاته يبدونها إلينا حتى لا تفوتني بسمة أو ضحكة تنطلق أثرهما.

وعلى الرغم من ذلك كانت ضحكتها هادئة نابعة من شعورها على خلاف فتاة أيمن التي كانت تنفجر بالضحكات الرنانة كثيراً ما تسببت في أن تشد أنظار المارة إلينا.

وفوجئت بأيمن يقول لي بأنهما يريدا أن نغير جلستنا ونصطحبهما إلى كافتريا المحطة.

على أنغام الموسيقى

في الطريق إلى كافتيريا المحطة، حيث الهدوء والمشروبات ونظرت إليه كي يحل هذا اللغز. وهو ينظر لي عسى أن أحل له هذه الورطة التي وقعنا فيها.

فكيف سندخل معهم إلى الكافتريا وجيوبنا ليس فيها سوى ما يكفي لسد رمقنا حتى نرحل؟.

وبعد تفكير لم يستغرق برهة همست له أن الأمر بسيط فسألني: كيف ؟.

فقلت نذهب معاهم إلى هناك وعندما تنزل المشروبات سأستأذن في الذهاب إلى المرحاض ثم تلحقني أنت بعد ذلك فقال بدهشة: ونتركهم؟.

- عندك حل آخر ؟.

فكر برهة ثم قال: أقوم أنا الأول إلى المرحاض ثم تلحقني.

وكانت الفتاتان وقتئذ تنظران إلينا بدهشة وإعجاب من سماعهما اللغة العربية التي كنا نتحدث بها منتظرين أن يستفسروا عما يشغلنا حينما نسكت.

وسرعان ما بدد أيمن دهشتهما وأفهمهما أن سبب انشغالنا كانت ترتيب المواعيد ثم وافقنا على أن نصحبهما.

دنونا كلاً مع فتاته من كافتريا المحطة التي كانت تبدو لنا بجدرانها الزجاجية البلورية اللامعة ودخلنا إلى بهوها البسيط الهادئ الساكن عن الدوشة الطفيفة التي تبدو من صالة المحطة.

وكان صوت الاستريو دافئ عذباً بأغاني فرقة (آبا) التصويرية التي تملأ المكان.

واخترنا طاولة ذات أربعة كراسي وجلسنا في مقابلة بعض بجواري جوليا وأيمن وفتاته في مواجهتنا.

جاء الجرسون وكان صينياً فطلبت جوليا زجاجتين بيره وطلبت كارين نفس الطلب.

وذهب لإحضارهم ومن لحظة إلى أخرى كنت وأيمن ننظر إلى بعض منتظرين اللحظة التي سنفلت منها عندما ترص الطلبات أمامنا ودقات قلوبنا تزداد والابتسامات الصفراء علت وجوهنا.

وكأننا نجاريهم لحين اللحظة وجاء الجرسون يضع البيرة أمامنا وفوجئت بجوليا تفتح شنطتها وتخرج ثمن الزجاجتين التي طلبتهم.

وفعلت كارين نفس الشيء وبرقت الفرحة في عيوني وعيون أيمن ونحن ننظر إلى بعض غير مصدقين.

نجونا من هذه الورطة بشيء لم يكن نتوقعه على الاطلاق وهو أن تدفع لنا الفتاتين ثمن المشروبات.

وفي لحظة لم يكن يسعفنا فيها الحل الذي اقترحته لأننا اكتشفنا بأن الجرسون عندما يرص الطلبات لا يذهب بل يتوقف منتظراً أن يقبض ثمنها على الفور.

رجولة في قفص من حديد

عاد التنفس الطبيعي يعمر صدورنا وجاءت البسمة الطبيعية تورد وجوهنا وزادت الضحكات عما كانت عليه ونمى الود بيننا وزاد القرب والتفاهم وبدأ لساني ينفك من عقدته بالكلمات الانجليزية التي التقطها من هذه الجلسة.

وكانت جوليا تشجعني في أن أعبر بهم عما أود الإفضاء به فكانت صبورة لا تنزعج من ركاكة التعبير ولا تلعثمي في النطق، وتسهل لي ما تعبر عنه في كلمات بسيطة واضحة.

وفي وقت كانت تتداخل فيه عيوني بعيونها الزرقاء لأسبح فيها إلى نهر أنوثتها الفائضة فيعتريني إحساس بالثقة والرجولة.

وكأن روحي ظفرت بحريتها كلما دخلت عيوني بعيونها عندما تنطبع حدقة عينها في عيني فنظرتها لي كانت كفيلة بأن تحطم الأكبال المتراكمة من سنون عدة فوق روحي. كانت تطلقها كمن يفتح باب القفص الحديدي لعصفور الكناريا فيشرع جناحيه يضرب بهما الهواء بقوة ليبتعد سريعاً عن السجن الذي كتم أنفاسه عبر مدة كان حلمه فيها هو الانطلاق إلى الأفق إلى الأغصان إلى النافورات إلى الطبيعة بجمالها الوارف.

وكانت أيدينا تقترب من بعضها في سرعة واحدة أحسست عندما لمست يدي يدها وأصبحت في كفة راحتها أنها غاصت في حنانها فسرى الدفء في عروقي يعيديها إلى شبابها بعد أن تهددها الزبل والجفاف سرى إلى قلبي يحوطه بغلاف الأمان والطمأنينة يبعد عنه شبح الغربة المتربص به.

اقتربت المقاعد من بعضها حتى صارت قطعة واحدة ركزت بعدها نظري إلى وجهها أتفحصه فكنت كالمشاهد لتابلوه يعرض منظر لأجمل ما في الطبيعة فتوقف يجمع حواسه ليرتشف كل جزء منه يغذي بهم وجدانه قبل أن ينسلب لبه.

ثم راحت شفتاي إلى شفتاها أروي بشرابهم جسدي البالي ويداي تحوطها وتزيد من احتضانها وكأنني أريد أن أصدق بأن بينهم أجمل وأغلى دره في الكون وأجمل ما في الوجود.

كان أيمن وكارين خلالها في وادي آخر فالكل يفعل ما يحلوا له دون أن يكون هناك ما يتصيده بفضوله.

شيء مدهش عندما أحسسنا أننا نمارس حريتنا وسط مجموعات البشر المشغولة فيما تفعله فقط كلاً وعالمه الخاص.

وكانت زجاجات البيرة ترص أمامنا كلما فرغت وجوليا وكارين يتوليان الحساب ونحن في عالم آخر عالم الإحساس بالحياة والشعور بالوجود.

وكان الضحك يذوب كلما اقتربنا من بعض والصمت المعبر يزداد لم نعد في حاجة إلى الانجليزية كانت عيوننا تترجم ما تحتاجه أنفسنا.

الحب سبرانتو Esperanto لغة عالمية، ليس في حاجة إلى كلمات، والوقت يمر والدفء يزداد ثم فوجئت بجوليا تقول لي في حنان: ترقص؟

فقلت بسرعة: نعم أين ؟

- في نادي نايت كلوب قريب من المحطة.

ثم ما لبثت أن قالت لأيمن وكارين فوافقوها ونهضنا نخرج من كافتريا المحطة صوب الملهى.

كوكو .. ياسي فوفو

الأضواء المبهرة وأفاريز المحلات المضيئة تبدد سواد الليل بتشكيلة من الألوان المختارة لتناسب كل مكان تنبعث منه فبدت الشوارع والميادين تتلألأ وكأنها حبات من اللؤلؤ موضوعة حول عنق العروس الدنمارك. ويدي حينها كانت تطوق خصر جوليا وهي هائمة برأسها على كتفي بينما كانت تفلت من أيمن كارين فيسرع وراءها وتظل تدور به حول النافورات المضيئة إلى أن ينقض عليها فيأخذها في صدره في قبلة طويلة تظهرهما بوضوح الأضواء القوية المنبعثة من البرجيتورات المسلطة على مجموعة المياه المتراشقة والتي تتغير ألوانها تارة بالأحمر والأزرق وأخرى بالأصفر والأبيض.

يفعلان ما يريدانه وسط الميدان المملوء بآلاف المارة المحافظون على الحياة وعلى الحرية وكنت أضم جوليا بين صدري بين الفنية والأخرى أريد أن أصدق دائماً أنها بجواري.

وخطواتنا وئيده صوب الملهى إلى أن وصلنا إليه فدفعنا بابه الزجاجي ودخلنا إلى صالة فسيحة ذات أضواء خافتة.

ليس ملهى كما قالت جوليا إنما صالة مطعم ممتلئ بالطاولات المرصوص عليها مختلف الأطعمة وسط ديكور يثير الشهية دائماً مهما أكل الإنسان لم تعطي جوليا فرصة في أن أسألها.

وهي لم ترد أن تضيع الوقت في اجابات لن تضيف شيئاً فجذبتني إلى أحد الطاولات كما فعلت كارين مع أيمن وناولتني إحدى القائمات الموضوعة عليها لاختار وجبتي وحاولت جاهداً أن أترجم كلمة من الانجليزية المكتوبة بها القائمة دون جدوى.

في الوقت الذي حضرت فيه المضيفة ترحب بنا وتتلقى طلباتنا فسألتني جوليا عما اخترته وعلى الفور قلت كوكوكو.

فنظرت لي بدهشة صامتة ومالت برأسها وكأنها تقول لي ما هو كوكوكو؟. ولحقها أيمن بنفس الدهشة يقول لي: كوكوكو إيه يا سي فوفو؟.

أما كارين فتوقفت عن الضحك وظلت تنظر لي في شغف وكأنها اعتقدت أنها أكلة فرعونية فصممت للتأكد ولا أدري ما الذي جعلني أقول هذه الكلمة ربما لأنني كنت أقصد أن أطلب فرخة ولكن عدم معرفتي معناها بالانجليزية دفعني لأقولها على أساس صفة من صفاتها حتى يفهمون ما أقصده فنتج العكس وتابع أيمن سؤاله في إلحاح: مالك سكت ليه إيه الكوكوكو ده؟.

فأجبته على الفور مقاطعاً: يا أخي أقصد أقول فرخة فمعرفتش معناها وقلت يمكن تفهموا بالكوكوكو.

فانفجروا من الضحك بعدها طلبت جوليا من المضيفة طلباتنا التي سرعان ما عادت مع أخرى تفرشها على الطاولة في تناسق.

وانشغلت في تناول وجبتي التي جاءت في وقتها المناسب لمعدتي التي لم تستقبل سوى الفتات من الأكل منذ صباح هذا اليوم.

ولم يستطيعوا هم نسيان الكوكوكو فكانوا من اللحظة إلى الأخرى يقولها أحدهم فجأة حتى ينفجروا في الضحك يتبادلانها كقفشة كوميدية فيكفي أن يقولها أحدهم حتى ينفجروا جميعاً في الضحك.

ولم أجد مناص أن أشترك معهم كلما توقفت عن الأكل لأعطي معدتي فرصة الهضم لأعود من جديد إليه إلى أن أنهيت على الفرخة تماماً ثم نهضنا نغتسل.

تولت جوليا ثم كارين دفع الحساب كالعادة بعدها أخذونا إلى صالة متفرعة من صالة المطعم.

الإوز البري يرقص على أنغام الديسكو

فتحوا باب في نهاية هذه الصالة فاعتقدنا أنه باب الخروج.

ولكن كالعادة فوجئنا بأنه مؤدى إلى الملهى، شيئاً لم نكن نتوقعه على الاطلاق لا يمكن توقع شيئاً في هذه الرفاهية المتناهية.

دخلنا إلى مكان مبطن بالشموازيت الأحمر ويشبه إلى حد كبير نصف الدائرة تلمع في وسط أرضيته المغلفة بالسجاد الفارسي دائرة كبيرة من النحاس تعرف بالمرقص (البيست) ونصف الدائرة هذه مقسمة إلى أركان كل ركن مستقل عن الآخر ومكون من أرائك عريضة من القطيفة والشموازيت الأحمر وفي أحد الأركان توجد غرفة زجاجية يجلس فيها أخصائي الصوت يشغل أشرطة التسجيل والاسطوانات على أحدث الأجهزة والتي تخرج أصواتها من الاستريوهات ناعمة لتدفئ المكان بأغانيها وموسيقاها أخذنا مكان بأحد الأركان وجاءت الضيفة ترص البيرة أمامنا وكانت جوليا بالقرب مني وبينما أيمن وكارين في ركن خاص وكان الضحك قد توقف.

وبدأ حديث هامساً ناعم يحل محله كباقي الفتيان والفتيات اللائي كانت تملأ الأركان.

وشيئاً فشيئاً تغيرت الاضاءة وسطع الضوء على الدائرة النحاسية التي تتوسط الأرضية البيست، وتغيرت الموسيقى الناعمة إلى أغاني الديسكو السريعة القوية فقام كل فتى مع فتاته يبادلها الرقص بخطوات متوازنة مع الايقاع ومسكت جوليا يدي وجذبتني لأرقص معها وكانت أول مرة في حياتي.

فتركت جسدي وخطواتي تنساب مع الموسيقى لكونها تعبيرية تركتها تتوافق مع الموسيقى وبعد لحظات شعرت أنني أحلق وبدأت ساقاي ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً ويدي في أيدي جوليا نقترب إلى عالم الأحلام والخيال كان من الصعب علي أن أصدق كل هذه الأِشياء الجميلة.

طمأنينة غريبة كنت أعيش في كنفها منذ صادفت تلك العيون الزرقاء الرائعة التي لا تقل عن بحر الشمال سحراً ولا وداعة وسكون عالم تأخذ منه ما تريد إلى أن تشبع.

كنا كجماعات البط والأوز البري الذي يخطر على شط البحيرات بإفريقيا بألوانه الزاهية متباهياً ينفش ريشه في دلال ونعومة.

كنا نقول للعالم أننا سعداء الرقص شيئاً غريزياً وأدته فينا التقاليد وحجبته مظاهر الوقار الكاذبة التي يجب أن نظهر بها وكأن هذه الأشياء سوف تقودنا إلى طريق الانحراف مع أنه بالعكس يفرغ عنا شعورنا بالخمول والكسل ويشعرنا بالنشاط والحركة والانتظام، أشياء كثيرة نحتاج إليها لنصل.

كنت أنظر إليها والى حركاتها ففكرني بالبطة التي تخطو في دلال ونعومة، كنت أضمها إلى صدري كلما احتجت روحها، كانت أنفاسنا تتوقف لنتخلص من جسدنا المادي وتصعد معاً إلى أرواحنا.

كنت في حاجة إلى روحها أكثر من جسدها لنصل إلى قمة الحياة وأوج السعادة.

ومرت اللحظات والقرب بيني وبينها طبيعياً في مجراه أنه كان طريقة للوصول إلى قمة الاذابة عندما تذوب روحي في روحها ونصبح روح واحدة.

خرجنا من الملهى لنعود صوب المحطة بعد هذه الأمسية الرائعة تلك الأمسية التي نقشت في تاريخي لأنها اليوم الوحيد الذي يمكن أن يحسب كيوم عشته في هذه الحياة.

ونزلنا إلى رصيف المترو كي يستقلوه الذي كان في عكس اتجاهنا ووقفنا في انتظاره.

ثم اتفقا على اللقاء في اليوم التالي بكافتريا المحطة لنقوم بجولة في المدينة وما أن ظهر المترو في الأفق قادماً حتى أخذتني جوليا في صدرها وأحاطتني بذراعيها بكل قوة.

وفعل أيمن مع كارين نفس الشيء وكأنهما لا يريدان فراقنا.

صعدوا إلى المترو الذي سرعان ما أقلع ووقفوا من خلف زجاجة يلوحون لنا بأيديهم حتى اختفى بهم في باطن النفق الأرضي.

بنات الدانش

عدنا إلى الأكتف مقتربين منه فوجدنا أمام بابه سيارة فولفو مضيئة أنوارها العالية تبدد سواد الشارع وكانت تبدو أنها تهم بالرحيل ولكنها توقفت عندما اقتربنا منها.

فسمعنا صوت طه ينادي علينا فتوقفنا لنجده ينزل من السيارة يعانقنا، وكانت هناك سيدة في الخمسين من عمرها تقريباً تجلس على عجلة القيادة ترمقنا، ثم قال لنا: أنتو فين أنا جيت هنا من ساعة أقعد معاكم..

كنا معزومين في فرح.

ثم ضحنا: هو هنا فيه أفراح؟.

- على العموم أنا راجع مع صحبتنا وسأمر عليكم في وقت آخر.
- لكمن انت عملت إيه اشتغلت؟
- أبداً، خلصت ، وبعدين هقول لكم على القرار اللي أخذته بعدين باي باي.
- واتجه إلى السيارة إلى حسنائه العجوز ثم سرعان ما انطلقوا.

وتوقفت أنا وأيمن ننظر لبعض في دهشة من الهزال الذي يظهر بوضوح بطة حتى بطة حتى خطواته لم تكن طبيعية ولكن ما زالت ابتسامته هي الباقية على ثغره.

تملكنا جميعاً الذعر حين رأينا الشيخ عبد الحميد يبكي في غرفة الأكتف والفتاة التي كانت معه في الكريستيانا تحاول تجفف دموعه وتهدأ خاطره بلا جدوى.

وهو ما أن رآنا حتى علا نحيبه فاتجهنا إليه نستفسر منه عما حدث فاندهشنا حين علمنا بأنه استجاب لرغبات الفتاة حين انفردت به بالغرفة وهو متأكد بأنها لم تعد عذراء.

وظللنا ننظر إلى بعض واليهما بينما كانت الفتاة في حالة طبيعية كأن الذي حدث هو أمر طبيعي فلم يكن يهمها شيء إلا تهدئة خاطر الشيخ عبد الحميد.

والذي كان لا يشغله شاغل سوى غضب السماء عليه ولم يكن أمامنا من أجل تهدئته سوى أن نقترح عليه بأن يتزوجها.

فسكت لحظة وكأنه أراد أن يهضم هذا الحل الذي لم يخطر على باله وظل ينظر إلينا والعجيب أنه كان من بيننا من يقف كالذئب يفترس الفتاة بعيونه متمنياً عدم استجابة الشيخ عبد الحميد لهذا الحل.

حتى يتقدم هو ليحل محله ويتزوج الفتاة.

ويبدو أنها شعرت بهذه الأحاسيس والمشاعر فعلقت زراعيها على عنق الشيخ عبد الحميد لتحثه على قبول الاقتراح وتمنع هذه الذئاب عنها.

فجأة تهلل وجه الشيخ عبد الحميد وانفرجت أسنانه المعوجة وعيناه الضيقتان وقبل الاقتراح علت صيحاتنا وكدنا أن نصف له بينما علت الدهشة وجه الفتاة وكأنها كانت تريد أن تعرف ماذا حدث.

ففاجأها الشيخ عبد الحميد بقوله بالإنجليزية: هل تقبليني زوجاً لكي؟

فنهضت تقبله وكأنها غير مصدقة وهي تتمتم: نعم .. نعم .

ونحن مندهشين من قصة الحب المثيرة التي تدور أمامنا مرددين جميعاً مقولته الشهيرة: الحمد لله على ما شاء وأوصلنا إلى هنا.

وتشرق الإبتسامة الدنماركية من جديد

كان الجو مفعماً بالنسمات الخفيفة التي تتحسس وجوهنا حيناً تداعب الورود الفيحاء في أحواضها بمواجهة كل نافذة حيناً أخر.

وقطرات الندى ما زالت عالقة بزجاج نوافذ الأبنية وعلى صفحة الأسفلت فتعكس لمعاناً طفيفاً عليها والسماء بلونها الرمادي المخلوط بالزرقة تشكل لوحة باهرة في سكب الألوان أو السكون لا يشرخه سوى مقطوعات التغريد المتداخلة من الطيور السابحة في فضاء الحدائق أو قرب النافورات الرخامية التي نصادفها.

ونحن في طريقنا صوب محطة أستربوت الجميلة والتي تعتبر صورة مصغرة من محطة كوبنهاجن، المحطة الأم.

وبصندوق البوسطة ألقيت خطابي إلى صديقي المقيم بإيطاليا بعد أن شرحت له فيه الظروف الغير متوقعة وخاصة من عباس والتي نتعرض لها، وعرضت عليه أن يبحث لي عن عمل إذا كان الوضع ملائماً لذلك بإيطاليا.

جلسنا بجانب النافذة نطالع ما يخترقه القطار وهو ينطلق خارقاً السكون الممتد على طول شريطة.

واللون الأزرق بعد أن زحف على السماء واستولى عليها يبدو أنه الأن ينسحب بهدوء وإجلال للملكة القادمة من الشرق لتتربع على عرش النهار ومن ثم بدأ ضوء النهار يتوهج وبإحدى المحطات.

صعد رجلاً دنماركياً يجلس أمامنا ولاحظت على وجهة امتعاضه، فهمت أن سببها نحن فأصابتني الدهشة لأنها أول مرة أرى فيها وجهاً دانماركياً عابساً.

أين الابتسامة الصافية التي تشرق على الثغور الدنماركية؟. حتى كدت أسميها الابتسامة المعهودة نظر أيمن الي ويبدو أنه أندهش هو الآخر من هذه الامتعاضة فأخذت عيوننا تتفحص ملابسنا خوفاً من أن يكون شيء ما أصابها فجعلها غير لائقة.

شيء من ذلك لم يحدث، بينما أخذت أنوفنا تشم رائحة المكان خشية من أن يكون أحدنا لوثه ولكن الرائحة عاطرة وملابسنا نظيفة لائقة وشيء من ذلك لم يحدث.

وفجأة لاحظت أن اليافطة المثبتة على حافة النافذة تمنع التدخين نهائياً.

وهو الأمر الذي لم ينتبه إليه أيمن الذي كان مشعلاً سيجارة بين أصابعه فنبهته إلى اليافطة وعلى الفور أطفأ السيجارة وبدد الدخان بكلتا يديه فعادت الابتسامة تشرق على ثغر الرجل.

وكأنه يشكرنا على ادراكنا لقواعد النظام دخل عربات القطار وأدركنا أن الحرية لا تعني إلا النظام.

والقطار يواصل اختراقه بقوته الكهربائية التي لا تهدأ عبر الأراضي الخضراء المكسوة بالحشائش والأشجار الباسقة المشذبة.

خُيل إلينا بأننا نمرق داخل واحة الفردوس السندسية المقدسة. بكل ما فيها من طبيعة خضراء وأرفه تأخذ الألباب.

والبحيرات الرقراقه تنساب كحبات الفيروز البراقه من قطعة إلى الأخرى.

ثم ما نلبث أن نرى الفيلات البيضاء تطل عليها في شموخ وعلياء من فوق الروابي الخضراء.

وأوراق شجر الصفصاف واللبلاب يتسلقن طوابقهن بل في أكثر الاحيان يعانقن الزهور اليافعة المطلة من نوافذهن ذات الستائر الحريرية البيضاء.

وينحو شرط قطارنا ناحية حافة بحر الشمال لتصافح أعيننا صفحة مياهه الزرقاء الزمردية. وهي تتدافع معاً في قوة وحب لتعانق شاطئها الأبيض بينما وقفت اللنشات الصغيرة تتراقص من نبضات هذا العاشق وهي مشدودة لمرساها الخشبي والاخريات من هذه اللنشات تمخر عباب العاشق قاصدة جزره برفقة طيور النورس البحرية البيضاء التي تنشد لها سيمفونية ملائكية عذبة تأسر الفؤاد وتطرب الآذان.

امتزجت رائحة أمواج العاشق التي يروج منها برفان اليود ليفتح الصدور ويجدد النفوس يصبو بالوجدان مع هذه الطبيعة الخلابة ليرافق النورس في أسفاره.

كانت عيوننا تطالع في شغف هذه الطبيعة الساحرة بعد أن أمست عاشقة لكل جزء من مفاتن هذه الطبيعة في الدنمارك الحلوة مما كان يدعونني بالبقاء فيها لأنعم بروعة جمالها.

لعنة الفراعنة في اسكندنافيا

وأصبحت جوليا هي الأمل في الجنة.

مما أكدت اصراري على البقاء فيها وخاصة لأنني لم أبحث عن عمل بنفسي إلى الأن والنقود التي حصلت عليها من عملي السابق كانت تكفيني لأن أبحث من جديد لمدة أطول عن ما كان معي عندما غدوت هذه الأرض.

وكان ذهابنا هذه المرة لمدينة كلمبرج الواقعة بشمال كوبنهاجن ليس نابع بالتأكيد من كونها شاطئ للعراة ولكن لما توقعناه من موقعها على بحر الشمال من أنها منطقة سياحية مملوءة بالحوانيت السياحية كالبارات والكافتريات والفنادق السياحية الذي قد يسعدنا الحظ ونجد ضالتنا في إحداهن أو أي فرصة عمل تبعدنا عن أماكن القلق وعن عباس بالذات كالأكتف والسنترم.

تهادت سرعة القطار شيئاً فشيئاً إعلاناً عن اقترابنا من محطة كلمبرج التي بدت لنا عن بُعد بمبناها الهرمي والمحلي باللون البني والتي تشبه إلى حد كبير من بعيد محطات لعب الأطفال بألوانها الزاهية إلى أن هدأت سرعة القطار تماماً فنزلنا ندلف مباشرة ويبدو أن بحر الشمال أصبح في حضن محبوبته ذات الرمال البيضاء الملساء ومن الفينة إلى الفنية يقبل وجناتها بكياسة ورقة.

فركنا أيدينا بعد أن عبقنا صدورنا برائحة اليود الرائجة من أمواجه.

ونظرنا يمنة ويسرة عبر شارع الكورنيش لنبدأ مسيرتنا في اتجاه البارات والكافتريات فلاحظنا أن معظم المحلات تبدو موصدة ويبدو أن المدينة لم تستيقظ بعد فلمحنا بالقرب منا طاولات مفروشة بكراسيها على رصيف خاص

خارجي لكافتيريا ما زالت موصده الأبواب فغدونا إليها وجلسنا على إحدى الطاولات وأخرجنا طعامنا من شنطتي الهاندباك المعلقة على أكتافنا لنتناول فطورنا من الزبادي.

بازدياد حركة السيارات وازدياد توهج ضوء الشمس كانت الحركة تزداد وكأنها بدت تستيقظ تواً لتستقبل نهار مشمس دافئ.

فبدأت الحوانيت السياحية تفتح أبوابها الزجاجية وكأنها تفرد زراعيها لملاقاة عملائها بلباسها الزجاجي الآخاذ المصمم طبقاً لأحدث ما وصل إليه الديكور في خطف الأبصار وجذب ما في الجيوب.

لملمنا الأكل من أمامنا ورفعناه إلى الهاندباك على أكتفانا واتخذنا طريقاً عبر الشارع الرئيسي لنبحث عن ضالتنا.

اتفقنا أن يكون كلامنا على رصيف يطرق المحلات التي تصادفه.

وبدأ المسير وخطواتنا تنحو ناحية كل محل بخفة ونشاط لا تعرف الكلل بنفس القوة كنا نخرج من محل لندخل الآخر وإصرار غريب يعترينا بالرغم من أن بعض أصحاب تلك المحال كانوا يهزون رؤوسهم بالرفض ومنهم من كان يلوح بيده مشيراً أنه من العبث التكلم في هذا الموضوع وبالابتسامة المعهودة يودعوننا على أمل اللقاء بحظ أفضل.

خرجنا من دائرة الشارع الرئيسي لندخل في الشوارع الجانبية للمدينة نطرق فنادقها دون جدوى ويبدو أن أيمن فقد الأمل فأصبح يشير لي بيده لا فائدة فكنت ألح عليه أن يستمر كانت تلك المحال مملوءة بالأسبان واليوغسلاف والايطاليين الذين أتوا ليستثمروا أجازتهم في الأعمال التي يتركها الدنماركين ولم يكونوا في حاجة لتصريح العمل الذي كان يسألنا عنه بعض أصحاب هذه المحال باعتبار أن هؤلاء من الأرض الاوربية التي يسعى أبناءها جاهدين

لتوحيدها فلم يكن هناك موضع قدم لغريب إلا إذا كانت المدينة في حاجة إليه، وبعد أن يكون قد ذاب في دمائها بإحدى الطرق التي يستحيل علينا اجتيازها لأننا لسنا سوى سائحين ولم يكن لنا الحق في المكوث سوى ١٥ يوماً كما تقول التأشيرة الملكية المطبوعة على جواز سفرنا.

فكيف سيشغلنا أصحاب المحال بعد أن أصبحنا خارجين على القانون وعباس يطاردنا في كل مكان بعد أن كسرنا التأشيرة وامتدت اقامتنا أكثر من ٣٠ يوماً.

ولذا فكنا حريصين أشد الحرص على إخفاء جوزات سفرنا حتى لا يدرك أحد أن عباس يتعقبنا وإذا سألنا أحدهم عنه أو عن تصريح العمل فكنا نقول بأننا نجدده وبعد أسبوع سنستلمه فيبتسم لأنه سرعان ما يفهم الكذبة البيضاء فيقول لنا إذا حينما ينتهي تجديده أحضروه وسوف تجدون فرصة العمل فكنا نخرج والحسرة تملؤنا ، لنعاود البحث من جديد.

ولم يكن أحد يشعر بمحنتنا ويشاركنا فيها سوى الأشجار الحانية على طول طرقات المدينة، فكانت تحنو علينا بحبات البرقوق القرمزية الممتدة الينا من أغصانها الخضراء لنطفئ اللظى.

في كل مرة نقابل فيها بالرفض ويبدو أن لعنة الفراعنة أخذت تلاحقنا في هذه المدينة الخضراء.

فلم يعد هناك بصيص الأمل لمحاولة أخرى في البحث بعد أن جوبنا المدينة بأسرها. وخطت أقدامنا جميع محلاتها دون جدوى.

واقتربت بعد أن خفت حدة السيارات بها وبقيت لامعة بنظافتها ساكنة بوادعتها وبعد أن أدركنا بأننا أصبحنا ننقب عن إبرة ضائعة وسط مخزن مملوء بالقش في الظلام غلبنا النعاس وصرنا في حاجة لشيء من الراحة نفرد

فيها أجسامنا وأقدامنا التي حفت في استرخاء ولم يكن أمامنا سوى شرفة بلاج كلممبرج على بحر الشمال.

تزلج الجميلات

اتجهنا في البلاج، ونحن شبه مترنحين من إجهاد التنقيب وما أن وطأت أقدامنا الشاطئ حتى دب النشاط في سائر اعضائنا من المفاجآت التي جعلتنا نقف مندهشين فاغرين أفواهنا ننظر لبعض من لحظة إلى الأخرى.

لنصدق ما تراه أعيننا التي قفزت إلى الخارج تلتقط كل شيء بنهم.

الشاطىء عن أخره كان مكتظ بالنساء العرايا. والرجال العرايا. وكأن المدينة عن بكرة أبيها انسلخت عن ملابسها. فلم يكن يستر أجسادهم ولو ورقة التوت التي لم تتخلى عنها ستنا حواء ولا جدنا آدم.

كانوا جميعاً فرحين بالشمس المشرقة فرحة الأطفال وكأنهم يرونها لأول مرة فألقوا بملابسهم كي يمسحوا لها بالتغلغل في أعماقهم لتذيب ما جمده جليد الشتاء المنصرم.

فكانوا يرقصون غبطة وابتهاجاً على أنغام موسيقى الديسكو السريعة برشاقة والضحكات الرنانة تختلط مع صوت البحر فيكون موسيقى تصويرية تترجم معاني الهناء والرفاهية التي تلمحها في عيونهم الزرقاء الصافية والتي تنطق بها أجسادهم الممشوقة المقطوفة من أشجار الفاكهة جلسنا لنقترب منهم نتأملهم وهم يسبحون مع أشعة الشمس على الرمال.

ومع أمواج بحر الشمال الرقيقة التي تتدفق إلى الشاطئ برفق وبعض النسوة استقلت على صفحات الصخور العريضة لتقترب أكثر من مملكة الدفء لتحافظ على السحر الكامن في أعماقها.

هدأت عيوننا وعادت لمكانها بينما حدقتها اتسعت تتابع الحسان في انبهار وهن يشقون صفحة مياه البحر بزحفات التزحلق المشدودة باللنشات المنطلقة في عباب البحر يشبهون أجدادهم الفايكنج فرسان بحر الشمال.

حينما كانوا يركبوه ويتسيدون المماليك الأوربية في العصر السحيق أما الصبية فكانوا مشغولين في بناء القلاع من الرمال الطيعة والتي قما ما يهدد أسوارها الموج الذي ما أن يغمرها حتى يقوضها فيعيدون على الفور تشييد ما أنهار وكأنهم جنود بواسل يزودون عن عمائرهم.

إن المشهد باختصار يلخص التآلف النادر بين الطبيعة وبين الإنسان في كرنفال رائع يعبر عن الحب بأسمى معانيه وأخلص غايته فهدأت نفوسنا تماماً ولم تعد مولعة بمشاهد العري.

يوم الاستقلال

كان اختفاء الشيخ عبد الحميد أمر طبيعي سيما وأننا اعتقدنا بأنه قد سافر مع الفتاة إلى أي مكان ولكن سرعان ما أصبح اختفاءه بمثابة لغز حينما ظهرت الفتاة بمفردها وهي تبحث عنه وتسألنا عن مكانه وكان حرياً علينا أن نبادر بالبحث عنه في كل مكان سيما وأن الفتاة لم تنقطع يوماً عن الاتصال للاطمئنان عليه وهي قلقة وشغوفة لا تدري إلى أن ذهب.

اتجهنا صوب عنوان قريبه الذي كان يحدثنا عنه لنبحث عليه هناك وأخيراً عثرنا عليه.

وهو ما أن رآنا حتى تهلل وجهه بإشراقه وأخذ يقبلنا وكأنه في شوق لرؤيانا ولاحظنا أن قريبه الذي أسكنه معه في شقته يحاول أن يثنيه عنا بحجة تأخرهم عن موعد مهم إلا أن الشيخ عبد الحميد قال له بأنه سوف يلحق به.

وظل معنا يسأل عن أحوالنا وعن مستجدات الظروف التي نعيش فيها.

ويبدو أنه بهذه الأسئلة كان يتهرب من الإجابة التي سعينا إليه من أجلها.

فحين واجهناه عن سبب تركه للفتاة صمت الشيخ عبد الحميد وأخذ نفساً عميقاً ثم فاجأنا بقوله أنه في حيرة من أمره. حيث أنه حكى كل شيء بالتفصيل لقريبه فأثناه عن الزواج من هذه الفتاة مقرراً له أنها لا تصلح بأن تكون زوجاً له.

أما وأن كان مستعجل على مسألة الزواج فإنه على استعداد لتزويجه من شقيقته المدرسة بحضانة الأطفال الإسلامية بكوبنهاجن نزل هذا الخبر

كالصاعقة علينا لأننا لم نكن نتوقع من الشيخ عبد الحميد أن يترك فتاته بهذه السهولة.

وهو كان يبكي على ما فعله معها فحاولنا أن نقنعه بأنه لن يعوض مثل هذه الفتاة التي تتصل يومياً للاطمئنان عليه ولن يصادف لها مثيلاً يستطيع أن يعودها على تصرفاته لتكون زوجة صالحة تستطيع أن تتعايش معه بالطريقة التي يفضلها.

فصمت وأطرق برأسه وفوجئنا بقريبه يحضر له ثانية ويصر هذه المرة على أن يصطحبه بالسيارة لينهي مقابلتنا هذه معه فودعنا وفي لحظات كانت السيارة تختفي بهما.

وعُدنا إلى القدر المحتوم أقصد الأكتف ففوجئنا بقرار غريب أصدره مدير الأكتف يقضي بإبعاد المصريين الموجودين به إلى الملحق التابع له.

هذا الملحق شقة فسيحة بالدور الأول كان في عمارة مقابلة للاكتف ومجهزة بنفس التجهيزات الموجودة بالاكتف وإن كانت أقل شأناً وبات من الواضح أن المدير أراد ابعادنا عن الاكتف حتى لا يتكرر ما حدث بينه وبين طه مع أي شخص آخر ويكون مصيدة سهلة يأخذنا منها عباس بدون ازعاج دون أن يشعر بنا أحد وكان ردنا على ذلك هو إعلان استقلال الملحق وجعله جزء من الإقليم المصري طبقاً للإمتداد الإقليمي وما يترتب على ذلك من أثار. هو عدم دفع أجرة المبيت وأعلنا استعدادنا للتفاوض من أجل كسب المزيد من الوقت عرفنا كل هذه التفاصيل حينما دخلنا إلى الملحق حيث كان زملاؤنا يستعدون لالتهام وليمة من البطاطس اشتركوا جميعاً في إعدادها احتفالاً بيوم الاستقلال.

وكانت نكهتها لذيذة تملء أرجاء المكان حتى نفذت لانوفنا فأثارت لعابنا وزملاءنا ما أن رؤنا حتى جذبونا لنلتهم معهم هذه الوليمة المجهزة.

واندهشت من هذا التعاون الذي بدأ يظهر في سلوك الزملاء تجاه بعض.

وكأن الخطر المشترك من عباس أصبح يمثل استراتيجية واحدة للكل.

وأثناء انشغالي في الأكل جاء من يهمس في أذني قائلاً: جميل وظريف اشتغلوا في مطعم بشارع الووك استريت القريب.

ثم أضاف قائلاً: ايه رأيك؟.

- ماذا تقصد ؟.

فضحك في خبث وقال: كنت أريد أن أعرف ما ستفعل في هذه الفرصة الثمينة رداً على ما فعلوه معك.

- أحياناً التسامح بيكون أفضل من الانتقام.

فابتسم وظلت عيناه مندهشتان فناولته قطعة من اللحم فالتهمها وسرعان ما تطرق لموضوع آخر وجاء أيمن يأخذني على انفراد ويعرب لي أنه لاحظ عدم وجود شاي أو سكر مع أحد وعرض علي أن نشترك سوياً في شراء باكو شاي وعلبة سكر لنزيل حمو البصل والبطاطس عنا وعن الزملاء فوافقته وأنقدته ما يخص نصيبي فدلف إلى الخارج لابتياعهما.

كان المسئول عن إدارة المفاوضات هو الزميل حسن البرى الذي كان يتمتع بطلاقة في اللغة كانت تمكنه من إظهار حسن النوايا للمدير ومعالجته الموضوع بهدوء حتى يتمكن من الحصول على أجرة المبيت دون اللجوء إلى البوليس حتى لا تحدث مواجهة بينه وبيننا لأنه سيكون الخاسر الوحيد إذا لجأ لهذه الطريقة لا سيما وأن طه كان يمثل العنف بعينه لدى المدير وكان التلويح

بطه كفيل بتحقيق التقدم في المفاوضات لصالحنا من أجل المزيد من كسب الوقت.

وكانت عيون الزملاء تبرق بالفرحة وهم يرون الشاي بلونه العنبري يُصب في أكوابهم الواحد تلو الآخر والقفشات والضحكات بدأت تتصاعد لتغلق الجلسة بالود.

في اللحظة التي دخل فيها جميل ويوسف وظريف وأثار التعب من إجهاد العمل تبدو واضحة عليهم وهم ما أن رأوا الشاي حتى علت صحيتهم مطالبين بكوب أو رشفة من أحد الزملاء.

ساد الصمت وظلت المجموعة ساكنة لا تجيبهم خوفاً من إحراجي لأنهم يعلموا ما فعلوه بي.

فما لبث أن فهمت ذلك فقمت على الفور أخرج لهم الشاي والسكر ليقوموا بعمل ما يلزمهم وهم ما أن رأوا ذلك حتى أتوا يقبلوني وكأنهم ما زالوا يعتذرون.

وعندما تعالت ضحكات المجموعة وصاروا يخبطون الأكواب قائلين في صحة الأندال.

بانتظام .. نظف مكانك

مع فجر اليوم التالي نهضت لأستقل القطار من محطة استربورت قاصداً هذه المرة بلدة هليرود الواقعة في أقصى شمال كوبنهاجن.

اخترت الذهاب إليها حينما علمت أنها تحوي الكثير من المزارع وخاصة الفراولة التي أملت أن أجد ضالتي في إحداها لأنها غالباً تحتاج عمالة من أجل جمع الفراولة وحاولت إقناع أيمن بالذهاب معي إلى هناك لكنه رفض وفضل الذهاب إلى لهو الكريستانا.

بينما أثارت مناقشتي معه حفيظة ثلاثة من زملاء الاكتف فقرروا الذهاب معي بعد أن طالعوا خريطة كوبنهاجن وتأكدوا من أن هليرود تمثل البقعة الأكثر اخضراراً بالدنمارك.

جلست بجوار الزملاء أطالع من النافذة ما يخترق القطار من مشاهد طبيعية رائعة.

أصبحت في أمس الحاجة إليها لتذيدني إصرار للتملك بهذه الجنة قبل أن تخور قواي، فكانت بمثابة الأنيس الذي يخفف عني وطأة الخوف كلما تهددني.

كانت المفاجأة حينما رأيت سليمان وماري وهما اللذين كانا يعملان معي في الفندق يصعدان إلى القطار ضمن ركاب إحدى المحطات فنهضت مسرعاً اتجه إليهما وهما ما أن رأوني حتى علت ثغريهما ابتسامة شديدة واتجها ناحيتي يرحبا بي ثم سرعان ما جلسنا معاً وبادرني سليمان بقوله: أخبارك ايه وذاهب إلى أين؟

- ما زلت أبحث عن عمل واخترت هليرود لأنني سمعت بأن بها مزارع فراولة قد أجد فيها فرصة عمل.
- ربنا يوفقك وحاول وأكيد ستجد الفرصة التي تحلم بها؟
- وما رأيك في تصرف أحمد أمين معي؟
- أريد أن أوضح لك بأن أحمد أمين كان بيستغلك أيما استغلال فهو لم يكن يساعدك بقدر ما كان بيساعد نفسه لأنه كان بيخصم من مرتبك النصف ويضعه في جيبه لأنك المفروض تأخذ ٢٦ كرونه في الساعة وهو طبعاً كان بيعطيك ١٣ كرونه فقط؟.
- نعم
- وهذه طريقته لا يريد أن يستمر أحد في نفس العمل فهو دائم البحث عن وجوه جديدة ويحضرها لتعمل بهدوء دون أن يشعر به أحد وحتى لا يكتشف أمره أو يبلغ أحد عنه عباس وبيحقق ملايين الكرونات وشيلني وشيلك إلا يشعر به صاحب المكان. فهو لا يريد منه سوى تنظيف المكان بانتظام ولا تعنيه مسألة الوجوه سواء أنت أم غيرك طالما الشغل على ما يرام بيكون كله تمام.
- لكن أتعتقد بأن إيجار فرصة عمل في ظل عباس أمر سهل؟.
- أعتقد بأن الجواز من أي دنماركية سيسهل لك هذه المسألة رغماً عن عين عباس. هذا ما فعلته حين تزوجت ماري.
- تزوجتها رغم أنها يهودية؟.
- أنني أريد أن أعيش.
- وما لبث أن استأذن ووعدني هو وزوجته ونزلوا بإحدى المحطات.

واستمر القطار يتابع مسيره وسط الطبيعة الخلابة التي كان القطار يخترقها.

بنت الدانش سادية

فكرة الزواج بدأت تشغل خاطري، وصورة جوليا تختلط بالمناظر الخلابة التي كان القطار يخترقها.

وعادت روحي تفرد أجنحتها كطيور النورس ترفرف بقوة وتحلم مع السماء ولم تهدأ حتى في رحلة العودة بعد أن علمنا أن العمل في المزارع لا يبدأ إلا في شهر اكتوبر.

عُدنا إلى الاكتف لم نكن نصدق أعيننا من الفرحة عندما دخل علينا طه ونحن نتناول الشاي في جلستنا المعتادة كل مساء بملحق الاكتف.

وكانت فرحتنا نابعة من الشياكة والأناقة التي يبدو بها فوقفنا نأخذه في أحضاننا ونلتف حوله مندهشين من الأبهة والفخامة التي يبدو بها ونتبادل القفشات معه حولها وأراد أن يشغلنا بشيء آخر فأخرج من الشنطة البلاستيك التي كانت معه عدة لفائف وأخذ يفتحها على الطاولة فأسرعنا للالتفاف حولها لنجدها عبارة عن ثلاث دجاجات وبعض السلاطات وخبز وبعض علب صغيرة من المربى اتسعت حدقة عيوننا ووقفنا نتأمل هذه الوليمة في انبهار.

ثم ما لبثت أيدينا أن امتدت إلى الوليمة نأخذ نرفعه إلى أفواهنا.

وبعد أن أخذت نصيبي رأيت طه يجلس بمفرده في ركن مشعلاً سيجارته ساهماً.

فاتجهت نحوه، وجلست بجواره وسألته وأنا ما زلت أكل:

- مالك بتفكر في ايه؟.
- ما بفكرشي ولكن تعبان.

- لا حلوة حد يبقى في الشياكة دي ويكون تعبان؟
- الصيت ولا الغنى.
- مش فاهم ؟
- يا فؤاد أنا خلاص زهقت مش قادر أقعد هنا.
- أعقل يا طه، هو انت لما توصل تزهق، آمال الكفاح ده كله كان علشان إيه؟
- أنا كنت فاكر أن الحياة هنا هتسمح لي أنني اشتغل وأعيش الحياة التي كنت احلم بها أو على الأقل اشتغل.
- ليه هو انت ما بتشتغلش؟
- مش عارف.
- يعني ايه؟
- صحيح أنا مش عارف أنا باشتغل ولا مبشتغلش.
- وضحلي الحكاية دي بالضبط أنا مش ناقص فوازير.
- حقولك: أنا من أسبوع كنت قاعد في السنترم اتعرفت على سيدة كانت قاعدة بجواري ضحكة وكلمة من هنا وهناك لقيت نفسي في بيتها وفي غرفة نومها .. وبعدها اكتشفت أنها مش طبيعية، مجنونة، مصابة بالسادية.
- حاجة غريبة.
- دي بعض الحاجات اللي عندها.. قرفتني في حياتي.
- طب ما تحاول تخليها تشغلك.
- واشتغل وأنا معاها ازاي، اروح الشغل ازاي.
- ايه الحظ ده، دى أكيد لعنة الفراعنة.
- نقفل على الموضوع ده وحياة أبوك، أخبارك انتم ايه عاملين ايه.

- عباس بيطاردنا، وكل يوم بيقبض على ثلاثة أو أربعة والشغل مفيش حد عاوز يشغلنا إلا بتصريح، حتى المزارعين قالو لنا انتظروا الشهر اللي جاي، وحننتظر ازاي وعباس بينط كل ساعة والثانية.
- على العموم قبل ما أسافر حاجي أودعكم، عن إذنكم زمان الولية مستنية في العربية بره على نار.

اللقاء الثاني

لم يمض أسبوعاً على مقابلتنا الأخيرة بالشيخ عبد الحميد كانت خلاله فتاته تتصل دون جدى واتفقنا جميعاً على ألا نبوح بالسر الذي قاله لنا الشيخ عبد الحميد مبررين اختفاءه بسفره المفاجئ للسويد مع أحد أقاربه ونحن في انتظاره حتى لا نقطع خط الرجعة عليها ويبدو أن احساساً خفياً انتابنا من أنه سوف يعود.

وذات ليل فوجئنا به يدخل علينا وهو يحمل حقيبته شأن أول ليلة حضر فيها إلى الاكتف.

قمنا نقبله ونستفسر منه عن سبب حضوره فعلمنا منه بأن ضميره وعواطفه ناحية فتاته كانت تستنهضه.

في كل لحظة من أجل إتمام زواجه بها سيما وأنه اكتشف أن شقيقة قريبه كانت مطلقة من شخص آخر وهو لم يرد أن يفتتح حياته مع انسانة مطلقة ويترك فتاته العذراء.

كنا نريد أن نصفق له لولا جرس التليفون الذي رن فجأة فتوقعنا أن تكون فتاته.

أعطينا له السماعة، علت البسمة ثغره، فكانت هي بالفعل.

وأخذ يتحدث معها بالإنجليزية كان حديثاً مطولاً سرعان ما انسحبنا لنتركهما معاً على التليفون لنغط في نومنا.

انفرجت عيوننا معاً كالعادة .. نظرنا إلى ساعتنا ونهضنا مسرعين .. نرتدي ثيابنا فلم يعد يتبقى على موعدنا سوى نصف ساعة .

قفزنا من فوق درجات السلم ما أن وصلنا إلى ردهة الصالة حتى توقف أيمن وتحسس ذقنه وقرر أن يصعد ثانية ليحلقها.

وفشلت محاولتي في اقناعه بالعدول خوفاً من فوات الميعاد وصعدت وراءه أتحسس ذقني فوجدتها في حاجة لتهذيب هي الأخرى.

بقوته الكهربائية كان المترو يتابع مسيره عبر الأنفاق الأرضية التي تعترضه من حين إلى أخر.

وكان يجري وكأنه يريد أن يساعدنا في الوصول لموعدنا.

كانت الساعة التاسعة بالضبط تشير إليها ساعة المحطة وهي نفس الساعة التي اتفقا أن نتقابل فيها الكافتريا أخذنا السلم الكهربائي لنصعد إلى أعلى .. إلى صالة المحطة وأسرعنا ندخل إلى الكافتريا فوجدناهما في انتظارنا واتجهنا إليهما .. وعانقناهما وأرادا أن يطلبا لنا زجاجتي بيره.

فرفضنا وقلنا لهم بأننا في حاجة إليهما فقط ونريد أن نسير معاً في المدينة.

فنهضا معنا ونزلنا من المحطة لنبدأ مسيرنا في هذا الصباح المشمس الربيعي كلاً منا يحتضن فتاته والسعادة تغمرنا من كل جانب كنا نطالع المباني الزجاجية التي تتساوى في ارتفاعها مع بعض ذات الألوان المنسجمة معاً والتي تكمل بعضها.

والأحواض البلاستيك الملونة المملوءة بالزهور اليافعة الملونة تمتد من بداية كل طابق إلى نهايته فتعطي منظراً بابلياً رائعاً لأنها توهم المشاهد بأنها ليست سوى حدائق معلقة على طول جانبي الطريق والنافورات الضخمة الرخامية ذات الاشكال والتماثيل المختلفة تكسي الميدان بالحيوية.

والهيبيز بملابسهم التقليدية الغريبة ينتشرون حولها البعض منهم يستمتع بالعزف المنفرد على الجيتار الذي يلعبه والبعض الآخر يجري وراء بعضه حول النافورات وكأنهم يقدمون تابلوه راقص.

يؤكدون بسلوكهم بأن حياتهم هي الأهم في هذا العالم بينما المعتدلون من أهل المدينة يسيرون لهدفهم بقوة يسابقون الزمن يعرفون طريقهم جيداً وكأن الحياة عندهم هي الفناء من أجل الهدف.

عروسة نحاس على صفحة الماء

وقفنا على أحد الجسور العديدة بالمدينة، تربط بين أجزائها وسط القنوات والبحيرات التي تتخللها، فرأينا اليخوت السياحية المميزة بالسحبة الانسيابية الطويلة وقد تحولت باطنها لقاعدة مكشوفة تشبه المدرج جلس عليها السياح بينما وقفت المرشدة أمامهم تحاول جذب انتباههم بحشد المعلومات الأثرية للأماكن التي يمرون عليها من خلال القنوات والبحيرات ذات الأنفاق المبينة من الحجر الأبيض العريض.

شدتنا الكنائس الضخمة ذات القباب التي يبدو بعضها وكأنه الذهب الخالص.

والأبراج ذات الأجراس العتيقة الضخمة التي لا يعرف الوهن طريقة إليها.

وكانت كل كنيسة ذات تصميم خاص يضفي عليها اجلالاً ووقاراً ورهبة في نفس الوقت الذي يشدك جمالها وزخارفها لتقف في حيرة في اختيار الموقع الذي يمكنك من التهام جمالها دفعة واحدة كانت كل واحدة قطعة فنية بالغة الروعة والتصميم في اختبار الألوان وفخامة التشييد لأول مرة كنا نشعر بأننا سائحين.

اتجهنا إلى عروس البحر التي كانت تجلس في وداعة على صفحة الماء الزرقاء الهادئة لبحر الشمال وجسدها الآدمي العلوي لامرأة يافعة ناضجة ذات وجه فتان أخاذ تلتف خصلات شعرها حولها من كل جانب بينما ينسحب نصفها السفلي كجسد سمكة يلتوي في الماء ثم يصعد ظاهراً ذيلها جانبها كذيل سمكة عملاقة توشك أن تضرب الماء، هذه العروسة ليست سوى تمثال من

النحاس مصبوغ باللون البني الغامق مثبتة على صفحة الماء بقوائم غير ظاهرة بالقرب من أحد الشطآن التي تزخر بالصخور البيضاء العريضة، كرمز لجمال الدانمارك وقدرتها على الحركة وتحقيق المستحيل.

جلسنا على البسطة الخضراء التي تشرف على شاطئ العروس نتأمل فتنتها وجمال تصميمها الذي جعلها تجلس كالمرأة الوديعة الساكنة التي تزخر بالقوة والفتنة .. وكنت أسبح حينها مع هذه الألوان الجميلة عبر هذا النهار المشمس وكأني كنت في رحلة بحرية.

مع لون السماء الأزرق الفاتح ولون البحر الأزرق الغامق ولون الصخور البيضاء الناصعة واخضرار البسطة السندسيه التي كنا فوقها.

فتى كارين الذي عاد

على شاطئ المياه، تجمع عيون جوليا كل ألوان الطيف، وكأن الحياة تنساب منها ويفيق فيها الوجدان فعادت روحي تغرد أجنحتها وترفرف مع طيور النورس تتلمس مياه البحر برفق ثم تعلو إلى السماء.

كانت عيوننا تتحدث معاً بلغتها وكانت تترجم لها ما أضحى صدري يكنه لها في جمل لم تكن الانجليزية ستسعفني فيهم بأي حال من الأحوال كنت أقول لها:

حبيبتي إنني لست أريد سوى أن أطل
من شرفة عينيكي إلى عالمك النابض
الذي تذوب فيه نفسي وتصعد روحي
من أغلالها إلى افقها باسمه بحبك
وبضفاف نهر عذوبتك أنعم بكي
أيتها الحياة فظلمة وحدتي الكالحة
كاتمة أنفاسي عن الحياة في شوق
لقمر عيناكي ليضيئها ويبدد مرارة
حكمها ويعيد وجداني من غائرته
البعيدة لينعم بشمس حنانك الدافئة

كانت عيوننا تتلاقى في صمت، وكأنهما جهازي استقبال وإرسال فعيوني كانت بمثابة جهاز إرسال وعيونها تستقبل.

كل خلجة أريد نقلها لتشعر بمدى السعادة التي أصبحت أعيش في كنفها وتنقل حقيقة شعوري إليها بينما كانت عيونها ترد على هذا الإرسال برضاء وارتياح وتترجم لي إحساسها وشعورها نحوي وتتحول عيوني لجهاز استقبال توصل لي هذه المعاني.

وتيار خفي يربطنا ببعض في الوقت الذي كان فيه أيمن يختلي بكارين تحت شجرة البلوط على البساط السندسي يتهامسون تارة وتتصاعد ضحكاتهم الرنانة تارة أخرى كعادتهما.

نهضت أنا وجوليا نسير بمحاذاة الصخور ويدي في يدها ورذاذ الماء المتطاير من أثر تلاطم الموج بالصخور يلامس وجوهنا وكأنه يرطبها. وبعض من قطرات الماء تستقر على شعرها الذهبي فتعطي ومضات فسفورية خلابة.

جلسنا على أحد الصخور البعيدة، ثم قلت لها وأنا ما زلت أسبح في عيونا: عيناكي جميلة جداً.

- ولما ؟
- لأنهما يكادا أن يكونا هما الحياة بألوانها التي تفيق الوجدان الأزرق والأبيض بالإضافة إلى لمسة السحر.

ضحكت ضحكة عريضة ثم قالت: كيف استطعت أن تعبر عن هذه المعاني؟

- في الحقيقة أنا لم أنم البارحة وقلت لأيمن أن يترجم لي هذه المعاني لأفهمك بما أشعر به نحوك.
- إذا هذا وصف البارحة.
- واليوم وغداً وفي المستقبل أيضاً.

واستمرت في الضحك الهادئ ثم قالت: أنت لا ينقصك سوى تعلم الانجليزية.

- لو كنت أعلم أنني سأقابلك لما رضيت أن أتعلم سوى الانجليزية.
- ولما ؟

- لأنني لم أشعر بالحياة إلا معك.

- هذا كثير .

- بل هي الحقيقة.

فلم تجب بل صمتت كالعادة تنظر لي بعيونها الذكية. وكأنهما تريد أن تكشف صدق هذه الكلمات في وجهي وثغرها تملؤه بسمه لؤلؤية فامتدت يدي إلى يدها الغضة، فسرى تيارها الدافئ المملوء بالحنان في أوصالي على أثره أن اقتربنا أكثر ووجدت نفسي سابحاً في أحضان صدرها .. التقط شفتاها كحبات الكريز الدافئة .. وظلت نشوه السعادة تغمرنا..

بعد أن نهضنا من شاطئ العروس، عائدين صوب المحطة عبر الطرق الجميلة المملوءة بالأزاهير وبهجة الفرح تملأ صدورنا وفي احساسنا شعور بالعظمة سرعان ما انقلب إلى جنون فكنا نسير في خيلاء وفي اعتقادنا أننا ملوك هذه الجنة الرائعة كلاً منا يحتضن فتاته وكأنه سابح معها في حلم جميل وأقدامه تخطو حينها على قمة جبل السعادة بخطوات ثابتة مطمئنة.

اقتربت خطواتنا من ميدان المحطة وأوقفتنا إشارة المرور..

حينما كنا نريد العبور إلى الرصيف الأخر فلمحنا شاب دانمركي من بين الواقفين.

في الإشارة المقابلة يلوح ناحيتنا وفوجئنا بكارين تلوح له بحرارة بل كانت تريد أن تفلت من الإشارة تعبر الطريق.

ولكن كثافة السيارات منعتها وفاجأتنا جوليا بقولها بأنه صديق كارين.

عاد فجأة من غيبة طارئة.

وما أن فتحت الإشارة حتى جريا نحو بعض يأخذان بعضهما بالأحضان والقبلات وسط زحام المارة بينما تخشبت أنا وأيمن في مكاننا وأصابنا الذهول والاضطراب.

وأحسسنا بشيء ثقيل على قلوبنا وفي ثوان معدودات سقطنا من السماء على رؤوسنا إلى الأرض. وكاد أيمن يجن.

ثم ما لبثوا أن أتوا به ليعرفوه عليا وأقترب منا وفي وجهه ابتسامة عريضة يحيينا وكأنه يعرفنا من مدى.

بينما وجه أيمن كالبريجكتور يطفي ويضيئ ما بين الأصفر والأحمر وقسمات وجهه متلاشية.

ولسانه لم ينطق غير العربية وحاول الصديق أن يعزمنا على مشوب بكافتريا المحطة.

إلا أن أيمن أعتذر وتحجج بأنه لديه عمل لابد من انجازه ووافقته على ذلك وجوليا وكارين مندهشتان من التغيير المفاجئ الذي أصاب وجوهنا وكلامنا ولم تفلح محاولتهما في الذهاب معهما بل استأذنا ووعدناهما بالاتصال.

وانسحبنا من المكان كجيوش نابليون الممزقة وهي تنسحب من واترلوا بعد أن حاقت بها الهزيمة البشعة وكالعادة أخذتنا أقدامنا إلى الايرترم.

عزومة وغيظ وساعات السفر

ككل هزيمة نصادفها استرخينا على أحد الفوتيهات ووجه أيمن ما زال ساكناً واجماً لا يتكلم.

وكنت في نفس الحال لعلها الدهشة أو المفاجئة الأليمة التي اعتصرتنا، لمحت هاني يقترب منا ويتخذ مكانه بالقرب منا بعد أن بادلنا التحية وما أن جلس حتى سكت هو الآخر ينظر إلينا في قلق يريد أن يسألنا عما أصابنا ولكنه انتظر لربما عرفناه، وقف فجأة أيمن ثم قال لي بأنه سيذهب إلى الاكتف ليرتاح.

وما لبث أن غادر المكان الايرترم حتى سألني هاني عن سبب قلقنا فأهمته عما حدث فضحك ضحكة عريضة ثم قال: أهذا فقط ما أغاظكم؟

- هل هناك شيء أفظع من هذا؟

فابتسم ابتسامة خفيفة ثم قال: تصرفاكم عندما رفضتم عزومة الشاب الدانمركي.

- كيف؟
- أنهم الآن لم يجدوا تفسير عن سبب الضيف الذي أصابكم فجأة بعد أن كنت تخطو معهم في سعادة كما قلت لأن ما حصل منهم شيء طبيعي بالنسبة لهم أما تصرفكم من النظرة الغريبة هو البله بعينه فانتم هنا في قمة التحضر والتحرر ما هي جريمة عندنا هو الأمر الطبيعي هنا لا يصاب منه أي فرد بأي أذى.
- طيب ما هو تفسيرك لضيق أيمن؟

- سوء فهم نابع من شرقيته فهو فلسف الأمر بشرقيته البحتة.
- وإذا كنت في موقفه فكيف ستتصرف؟
- بنفس تصرفه.

فضحكت وضحك هو أيضاً ثم أردف: من الصعب على الإنسان أن يتخلى عن ثقافته مرة واحدة بل الأمر يحتاج تدريب لا يكون إلا بالمعايشة مع الثقافة الجديدة.

- إذا فالأفضل الاتصال بهم.
- وهذا هو العقل بعينه .. لتصحيح الخطأ .. سكتنا ثم تابع يسألني: وماذا تفعل الآن؟
- من ناحية؟
- من ناحية الشغل.
- لم أجد إلى الآن أي عمل بعد أن تركت عملي.
- أترغب أن تعمل معي؟
- بالتأكيد لكن في إيه؟
- ببساطة أنت ستساعدني في بيع منتجات خان الخليلي.
- فأنا قد أحضرت كمية حلي من خان الخليلي لبيعها هنا سأعطيك نسبة من مبيعاتهم.
- وأنا موافق.
- ومتى سنبدأ العمل.
- من الليلة.

دخل طه منزعجاً ومتوتراً علينا في انتريه الاكتف وكانت أنفاسه تلهث فأجلسناه لنعرف ما يضايقه فقال لنا بأنه قرر العودة إلى مصر وحاولنا عبثاً تهدأته ولكنه لم يقتنع وصمم على العودة قبل أن يفقد عقله بعد أن اكتشف أن

السيدة التي عرفها مجنونة وأنها ليست طبيعية أبداً وهو لا يستطيع أن يعيش معها بأي حال من الأحوال.

وقرر بالفعل العودة لأنه حجز بالتليفون مكان له على الطائرة التي كانت ستقلع بعد ساعة من الآن.

ودعنا في عجالة وانطلق والدموع تتساقط من عينيه وما هي إلا لحظات حتى دخلت علينا السيدة الدانماركية ذات الخمسين عاماً وهي عصبية كعادتها سألت عن طه فقال لها أيمن أنه سافر إلى مصر.

وما أن سمعت ذلك حتى هرعت إلى المطار فذهب وراءها ظريف وكأنه يريد أن يقنعها بأنه أفضل من طه ونحن مندهشين لهذه التصرفات فإذا أيمن يفاجئنا هو الأخر بأنه قرر الذهاب إلى استكهولم.

وحجز بالفعل تذكرة بالقطار وكلفته ٧٠ كرونه بعد أن أيقن بأنه لا مكان له في كوبنهاجن وذلك في القطار الذي يغادرها في الحادية عشر مساءً إلى السويد فأطرقنا صامتين.

أعضاء في الأسرة الفرعونية

عادت الشمس تشرق بذهبيتها إعلاناً عن صباح أخر، ولكن كانت هناك بعض السحب الرمادية تقف لها بالمرصاد تهدد هذه الذهبية فكان صراع من أجل البقاء يتجدد يومياً، إلى أن تغلبت فيه هذه السحب وانتصرت على الشمس، فأضحت الملكة تتراجع بمجرد أن تزحف عليها السحب، فتأتي النسمات الباردة تهلل بالانتصار.

كنت أرقب هذه المعركة، وأنا ذاهب برفقة هاني في طريقنا إلى بيع منتجات خان الخليلي المحمولة على أكتافنا بشنتطتي هاندباك.

فأخذني إلى محل .. صاحبه تاجر باكستاني يتاجر في التحف والآثار والأشياء القديمة.

يحمل المحل عبق الشرق .. وأساطيره الساحرة وأخرج هاني بعض المشغولات الفرعونية .. ليعرضها عليه فأبخس ثمنها .. بحجة أنه لم يعد يشتغل في مثل هذه النوعية من المشغولات .. فانصرفنا .. بعد أن ودعنا بلباقة إلى الباب لنستقل المترو ونتجه إلى مكان آخر لم يصادفنا فيه قبول واقترح هاني أن نقوم بعرض هذه الأشياء بأنفسنا فحذرته من عرضها بالشارع حتى لا نكون تحت قبضة عباس مثلما فعل مع ناجي.

استقر الرأي على أن ندخل الملاهي الليلية ونفرشها على إحدى الطاولات وبذلك ننأى من شرور عباس.

وفي المساء اتجهنا إلى أحد الملاهي الليلية، وجلسنا على إحدى الطاولات القريبة من المدخل، فأخرج هاني مفرش قماش منقوش بالصور الفرعونية

وأخذ يرص المشغولات الفرعونية عليها .. في انتظام .. الخواتم بأنواعها معاً والأساور والحلى معاً فبدت ملفتة للأنظار فسرعان ما التفت رواد الملهى علينا مبهورين تلك المشغولات الساحرة فكانوا مغرمين بها، وما لبث احداهن من تجربة خاتم أو سوار حتى تقر شراءه .. وبالطبع كان هاني بقدرته الفائقة باللغة الانجليزية يقنعها .. بأنها بهذا الخاتم قد أصبحت عضوة في الأسرة الفرعونية.

وأنها دخلت التاريخ من أوسع أبوابه فكانت تضج بالضحكات وتنقد هاني ثمنها وأقوم بلفها لها وترتيب المعروضات.

ولم يكن هاني يدفع أكثر من ثمن زجاجتي كوكاكولا ثمناً لهذا المعرض وظللنا على هذا الحال أكثر من ثلاث ليال.

وأدركت أن ما قمنا ببيعه بهذه الطريقة، لا يتناسب مع الكم الهائل الذي كان يحمله هاني، فعرضت عليه أن نبيع الباقي جملة لنوفر الوقت والمجهود، فوافق.

اصطحبته إلى الكريستيانا، مدينة الهيبيز ووجدت المرأة .. المختصة ببيع المنتجات الفرعونية ما زالت على حالها فعرضت عليها .. المشغولات فوافقت على شراء الكمية كلها. وبعد مساومات نقدت ثمنها لهاني وكان مبلغاً ضخماً أعاد إليه الارتياح والاطمئنان.

وبعد أن استقر المبلغ .. في جيب هاني أحسست بشيء ما تسلل إلى نفسه وصممت على عدم تركه إلا بعد أن أحصل على أتعابي منه حسب الاتفاق وكتمت مشاعري حتى لا أكون سيء الظن.

وحينما كان الاتوبيس ينطلق بنا عائدين إلى الاكتف أراد أن يستأذن مني فجأة في إحدى المحطات إلا أنني سارعت بالنزول معه.

أعرب لي عن أنه تذكر كافتريا الجامعة فأثر على أن يتناول غذائه هناك.

فاصطحبته إلى صالة الكافتريا، وجلست على إحدى الطاولات، بينما دلف هو إلى البوفيه وأحضر صنية واحدة وضعها أمامه ومشروب واحد وجلس يأكل.

بدون أن يومئ لي؟ وهو يعلم بأنني إلى اللحظة لم أفطر؟

استبد بي ضيق شديد وظللت أراقبه وأنا أكتم غيظي حتى أنهى طعامه، وقبل أن يتناول مشروبه قررت أن أطلب منه أتعابي وأحدد علاقتي به فقلت له: أعتقد بأنه آن الأوان لأخذ أتعابي.

- أتعاب إيه؟
- النسبة المتفق عليها.
- آه نسيت أنا قررت إعطائك ٥٠ كرونة.
- بأي حق وبأي حساب .. احنا بعنا جملة ولم تقم بأي مجهود.
- هذا رابع يوم أتجول فيه معك لحسابك ثم أنا أرشدتك للمشترية ولولاها لكنت الآن ما زلت تتردد على الحانات.
- هل تعتقد أنها كانت بعيدة عني أولاً أعرفها.
- أعتقد بأنني لابد أن آخذ حقي.
- هاك ٥٠ كرونه.
- انك بعت اليوم بـ ٢٠٠٠ كرونه الفين كرونة فقط ما عدا ما بعته في الأيام السابقة وأنا أريد منك ٢٠٠ كرونه حق اليوم فقط.
- لن أعطيك سوى ٥٠ كرونه وأفعل ما شئت.

لم أتمالك أعصابي، فطرحت مشروبه أرضاً، وقلبت الصينية التي أمامه عليه وبسرعة البرق ابتعد كل الحاضرين عن مكان المعركة وهم مندهشين بينما اشتبكت معه في عراك حاد.

وصممت على أن يحضر البوليس لأخذ حقي منه وفوجئت بشاب عربي يهدأ ثورتي ويبعدني عن هاني وطلب أن يعرف المشكلة لحلها بدلاً من البوليس خوفاً من حضوره وحينما عرضت عليه الواقعة زجر هاني وأخرج منه ٢٠٠ كرونه وأعطاهم لي.

خرجت من الكافتريا والدموع تنهمر من عيناي بعد أن فشلت محاولاتي في كتمها فاندفعت بلا شعور كأنها تغسلني وتطفئ أحزاني وأحلامي.

كما سار الشيخ من قبلنا

كانت مفاجأة أذهلتنا جميعاً حين رأينا صورة الشيخ عبد الحميد تتصدر الصفحة الأولى في الجرائد الدنماركية ولم يكن أحد فينا بالطبع يفهم ما هو المكتوب عنه حيث أنه بـ الدانش، اللغة الدنماركية.

ولم يسعفنا سوى مسئول الاكتف الذي ما أن قرأ الخبر حتى انهمر ضاحكاً لأنه كان يعرف الشيخ عبد الحميد وأخبرنا بالانجليزية بأن عبد الحميد فجر أزمة بين الحكومة والقصر الملكي حول زواجه من فتاته الدنماركيه فالحكومة تمنع زواجهم.

إلا بموافقة الملكة حيث أن الفتاة دون السن القانوني وأنها تتمسك بعبد الحميد ولا تريد ترحيله خارج البلاد وإلا فإنها ستضطر أن ترحل معه إلى أي مكان يرحل إليه.

ثم ما لبث التليفزيون الدانماركي يجري المقابلات مع الشيخ عبد الحميد الذي ظهر وفي فمه بايب يشعله وينفث دخانه بطريقة تدل على أنه واثق مما يفعله بينما ظهر مسئول الأجانب وهو ينشف عرقه ويبدو أنه لا يعرف كيف ستحل هذه المشكلة.

وما لبث الرأي العام للشعب الدانماركي أن يؤيد الفتاة وعبد الحميد ويطالب بالسماح بزواجهم ويناشدون الملكة التدخل لانقاذ حبهما وتتويجه بالزواج.

أصبح عبد الحميد حديث الأوساط الدانماركية الذين تعاطفوا مع فتاته.

وكان لهذه الضغوط جميعها الأثر في أخذ الموافقة استثنائياً ليتزوج الشيخ عبد الحميد من فتاته وسط فرحة كل المهتمين بقصته ويصير الشيخ عبد الحميد الوريث الشرعي لأكبر مصنع بيره في المملكة لأن فتاته هي الابنة الوحيدة لصاحب المصنع.

وما أن يستقل الشيخ عبد الحميد سيارته الفولفو بجواره زوجته حتى يقول: الحمد لله على ما شاء وأوصلنا إلى هنا.

عاد شبح الغربة والخوف يتربص بجوانحي بعد أن صرت وحيداً برحيل أيمن وطه. وترحيل باقي أعضاء الفوج بعد أن قبض عليهم ولم يسلم منهم جميل ويوسف فتم القبض عليهم أثناء خروجهم من العمل وقبل أن يتقاضيا أجرهما ليرحلا إلى مصر.

جلست وحيداً في الايرترم أفكر في الخروج من المأساة التي صرت أعيش فيها.

ألحت علي فكرة الزواج التي بعثها في سليمان وأدركت أن الاجنبي الذكي حين يطأ هذه البلاد فأول ما يفعله هو الزواج، وعن طريق ذلك تتحقق له فرصة العمل بسهولة وكأنه يضرب عصفورين بحجر واحد وهذا ما نجح فيه الشيخ عبد الحميد عن دون قصد وتذكرت أحد الشباب الذين قابلتهم في كابينة السنترال وكان الفزع والهلع يستوليان على وجهه وعرفت منه أنه أتى إلى هنا بعد أن ترك دراسة الهندسة بمصر.

وبدلاً من بحثه عن عمل بحث عن عروسه ولم يجد سوى امرأة تكبره بعشرية عاماً فتزوجها من أجل تحقيق هدفه.

وكان سبب فزعه بسبب تركها البيت دون سبب كعادتها وأن المشرفة وأن المشرفة الاجتماعية أمهلته آخر مهلة من أجل زيارتهما معاً لتتحقق من جدية الزواج كي تجدد اقامته.

ولا يدري أين ذهبت فكان يطلب جميع أصدقائها ومعارفها بحثاً عن مكانها ولكن دون جدوى فانطلق مذعوراً والدموع تلمع في عينه.

أما أنا فقد ملأني شعور بالارتياح وربما يكون حظي أفضل منه ومن سليمان.

لأن جوليا كانت في ربيع عُمرها ولم يتعثر معي الحظ كما تعثر مع طه، وأولئك.

وممكن أن يبتسم لي كما ابتسم للشيخ عبد الحميد وظللت أحلم مع نفسي وكأن الأحلام عادت ترفرف بأجنحتها حولي فأشرق وجهي وتنفست الصعداء وصممت على خوض هذه التجربة التي عن طريقها سوف أحقق ذاتي وأحلامي.

عيون جوليا وشعرها الذهبي

لم يتبق وقت أضيعه بلا فائدة.

قمت على الفور أطلب جوليا بالتليفون ليأتي صوتها المتدفق بحرارة يعانق أذناي مما جعل البسمة تشرق على ثغري، وعاد قلبي كعصفور الكناريا ينطلق من بين ضلوعي مرفرفاً طائراً إلى الأفق.

ومن شدة فرحتي وتلهفي عليها لم أفهم عما حدثتني عنه غير مكان اللقاء وميعاده. شدة فرحتي أنستني ما فعلته كارين بأيمن وبي.

ويبدو أنني اقتنعت بأن جوليا شخصية مختلفة تماماً عنها يبدو هذا واضحاً في تصرفاتها الهادئة العاقلة وأن ما ارتكبته كارين يخصها هي فقط ولا دخل لجوليا فيه فاطمأنت نفسي وسكنت سريرتي.

كنت أنظر لساعتي من اللحظة إلى الأخرى أريد أن أدفع عقاربها إلى الأمام لتأتي الساعة السادسة بسرعة موعد اللقاء.

وما أن اقتربت من باب الكافتريا حتى انفتح فتقدمت أبحث عن طاولة خالية حيث المكان كان يكاد مشغول بالكامل ففوجئت بجوليا تشير لي بيدها ويبدو أنها سبقتني فاندفعت إليها نعانق بعضنا عناقاً طويلاً غلفته القبلات الحارة وكأننا نعوض الأيام الماضية.

وجلست بجوارها ويدي تحتضن يداها الدافئتين والبسمة كانت لا زالت تتلألأ على ثغرها في رقة متناهية.

عُدت إلى التطلع إلى وجهها أتأمل مكوناته التي كانت متناسقة مع بعض وكأنها اختيرت بعناية فائقة لتعطي ترجمة حقيقية عن معنى الجمال والهدوء.

وكانت لمسة الماكياج الخفيفة التي تصبغ شفتاها وعيونها تعطي لها ضوء خلاباً بينما شعرها الذهبي يلتف في تسريحة رائعة يتوج هذا الجمال في بساطة متناهية.

وفوجئت بها تقول لي: عينك جميلة جداً.

فاندهشت فقلت لها: عيني أنا؟

أكملت: فلونهما بني صافي جميل.

- يعجبك اللون البني؟
- لوني المفضل.
- تأخذيهم؟
- وبما سترى؟
- ببحر الشمال عيناك بحر الشمال الأزرق.

فأخذتني في أحضانها ورحت ألتقط شفتاها بحنو وكأنني أتذوق منهما شراب الكريز، وفجأة سألتني: أين أيمن؟

جاء صوت يقول: برونتو

كررت جوليا مندهشة: أين أيمن؟

- سافر إلى استكهولم بالسويد.
- أحسست آخر مرة كان معنا أنه غاضب فجأة.
- لن أستطيع أن أعبر لكي بالضبط عن موقفه ولكنني سأحاول وأنا سأساعدك في التعبير.. أيمن كان سعيد وهو يسير برفقة كارين ولكن فجأة تركته وذهبت لآخر.
- فهمت ما تعنيه ولكن أود أن أوضح لك بأن كارين انسانة مهذبة وأيمن كصديق مثل توم وجون كلهم أصدقاء كارين.
- هذا شيء عادي عندكم أما عندنا فهو مختلف.
- كيف؟
- لن أستطيع أن أجد الكلمات لأشرح لكي بالضبط.
- تكلم بالإنجليزية وسأفهم ما تعنيه حتى ولو من كلمة واحدة.
- الحرية معناها الاحترام للآخرين.
- وهل هنا غير ذلك؟
- الفرد هنا يفعل ما يحول له كأنه يحترم رغباته.
- بل على العكس الكل هنا يحترم الآخر ويحترم نفسه لأن الحرية تحمل المعنيين.
- وكيف تترك كارين أيمن فهي لم تفكر بما سيصيبه حينما ذهبت لصديقها الأخر.

- إن الحياة قصيرة ويجب أن نعطي لكل شيء حقه ثم أن الثقافة هي التي تؤثر في مفهوم الفرد لذا فالكثيرون هنا يعتقدون أن الثقافة مرض خبيث يجب القضاء عليه ألم تذهب إلى الكريستيانا مدينة الهيبز.
- ذهبت.
- هناك يفضل البعض كما رأيت أن يعيش بعيداً عن المدينة يريد أن يعيش بطبيعته الانسانية يعتقدون أن الطبيعة الانسانية هي أنقى من الطبيعة المدنية المزيفة فتركوا أعمالهم وبيوتهم النظيفة ليعيشوا في حياة بدائية كما نعتقد نحن أما هم فمؤمنون بأنها النظافة الحقيقية عن المدنية المدنسة إذا الثقافة تبدو متناقضة فهنا بمفهوم وهناك بمفهوم آخر فما فعلته كارين يتفق تماماً مع ثقافتها ولم تخطأ بوجهة نظرها بل بوجهة نظر أيمن لثقافته المختلفة فالحرية لا تعين الاحترام للآخرين فقط بل تعني الأمرين معاً فردي وجماعي في نفس الوقت. كنت أنصت إلى كل كلمة أسمعها منها في محاولة لفهم هذه المعاني.
- والحقيقة هي أنني لم أجد صعوبة كبيرة في الفهم فسلاسة كلماتها بجملها البسيطة التي كانت تتخيرها لتبسط لي المعاني كانت السبب في فهمي.

وبعد أن نظرت إلى ساعتها عزمت على الرحيل على أمل اللقاء بها في أي وقت أرغبه.

أوصلتها إلى المترو وودعتها.

ثم اتجهت إلى المترو للذهاب إلى استربورت أخذه إلى الاكتف.

كنت وحيداً في ديوان المترو أتابع اختراقه للظلام المخيم على المدينة من خلال النافذة.

وكان الحوار الذي دار بيني وبينها يدور في ذهني كشريط تسجيل فكنت أشعر بالسعادة الممزوجة بالخوف خاصة عندما أتذكر ما قالته عن كارين وعلاقتها بجون وأيمن.

كانت تقول هذه الجملة ببساطة.

كان مبعث خوفي هو أنني بدأت اكتشف أشياء لم أكن أتوقعها كلما اقتربت منها أشياء كانت تهدد حلم الرومانسية الذي كنت أعيش فيه منذ أن صادقتها.

والغريب أنني بالرغم من عزمي على مفاتحتها في الزواج منها إلا أن حرارة اللقاء لم تترك لي الفرصة في عرض هذا الأمر.

ويبدو أنني ترددت حتى لا أحرم نفسي من اللحظات الجميلة التي أعيش فيها معها.

وأبى النوم أن يقترب من جفوني وكأنني كنت أقوي عزيمتي على أن أعرض عليها الزواج حتى لا أدع الفرصة تفلت مني سيما وأن أمري في البلاد كان على وشك الانهيار من شدة حملات عباس التي كان يشنها من آن لآخر بأرجاء المدينة والتي سلمت منها حتى الأن بمعجزة القضاء والقدر وأدركت أن بحثي عن العمل في ظل الظروف التي كنت فيها كمن ينفخ في قربه مقطوعة.

ولا أدري ما الذي جعلني وأنا في هذه الورطة أن أفكر في صديقي إبراهيم الذي كان يعيش في إيطاليا.

وكنت أتبادل الرسائل معه منذ أن سافر إلى هناك وظل بها أكثر من ثلاث سنوات وكنت أحتفظ بعنوانه وتليفونه هناك الذي أرسلهم لي حينما علم بأنني على وشك السفر إلى فرنسا في بداية أمري إلى أن قذفني القدر إلى هذه البلاد الدانماركية.

لم أنسى ما قاله لي في إحدى رسائله: إذا سافرت لأوربا فلا تتردد أن تتصل بي أو تأتي لعندي وسأتدبر أمرك.

كان إبراهيم من الشباب الطموح الذي أدرك هو الآخر أن السفر لأوربا هو الحل لأحلامنا الوردية.

وحين استقر بكابرويولو في شمال ميلانو لم ينسى أصدقاءه فكان دائم مراسلاتهم لحنينه الحاد لمصر.

أفكار كثيرة تزاحمت في رأسي كنت أحاول خلالها أن أضع النقط فوق حروفها ورتبتها من البعثرة التي كانت تبدو فيها واستقريت على رأي هو الاتصال بإبراهيم بإيطاليا لمساعدتي حتى أكون بمنأى عن مغادرة أروبا إذا اضطرتني الظروف لذلك ثم عرض الزواج على جوليا فإذا تم سأكون بذلك قد وضعت حداً للوحدة والخوف اللذين صرت أعيش في كنفهما.

نهضت مسرعاً اتجه إلى التليفون لأدير القرص نحو إيطاليا لأطلب إبراهيم ووضعت السماعة على أذني فسمعت صوت جرس متقطع بعدها جاء صوت يقول لي: برنتو برنتو..

جوليـــا وأنـــــا

- برنتو ؟

لم أفهم، فأعطيت السماعة لمسئول الاكتف فقال لي بأن برنتو تعني ألو بالايطالية ماذا تريد.

فقلت له اريد أن أكلم إبراهيم.

فأجاب المسئول بالايطالية: دوفيه إبراهيم.

وبعد لحظة أعطاني المسئول السماعة، وإذ بصوت إبراهيم يأتي متدفقاً غير مصدق أنني الذي أتحدث معه بعد أن انقطعت رسائلي عنه فترة كبيرة. وكانت مفاجأة سارة لم يتوقعها .. وعلى الفور سألني عن حالتي في كوبنهاجن فشرحت له الظروف.

فإذا به يدعوني إلى الذهاب إليه لإيطاليا حيث فرصة عمل متوفرة لديه ولا داعي للتأخير وهو في انتظاري في أي وقت وطلب مني أن أُخبره عن ميعاد وصولي ليكون في انتظاري ولم يترك لي أي فرصة في المناقشة.

وانتهت المكالمة على أمل الاتصال به.

اتجهت فوراً إلى القنصلية الإيطالية بكوبنهاجن لأحصل على فيزا دخول لإيطاليا مدتها ثمانية أيام. احتفظت بها على جواز سفري .. إلى أن أتخذ قراري النهائي بشان الرحيل.

كانت كل هذه الأمور وهذا النشاط الذي بدأته في صبيحة هذا اليوم مشجعاً وحافزاً لي لعرض فكرة الزواج على جوليا وكأنني كنت أُعد لنفسي خط دفاع

ثان. إذا لم تنجح هذه الفكرة كإجراء وقائي .. وفي نفس الوقت مشجع على اقتحامها بلا تردد لأضع حداً لمعاناتي في هذه المدينة.

وكم كنت أتمنى أن استمر في هذه الجنة سيما وأن فكرة الزواج لم تكن بقصد الاستقرار بالمدينة فحسب بل لأنني وجدت الإنسانة التي كان خيالي يبحث عنها فكنت أريد الارتباط بها ليس للبقاء فحسب بل لاحتياجي لروحها.

وربما كان ترددي نابع من شدة تعلقي بها فكنت أنتظر اللحظة التي تمكنني من عرض الفكرة عليها وأنا واثق من تحقيقها ولم يعد هناك وقت للتردد بين الإقدام عليها وظلت هذه الخواطر تتردد بيني وبين نفسي وأنا عائد من القنصلية الإيطالية في طريقي صوب شركة D I S وهي اختصار لعبارة اتحاد الطلاب الدولي لأتعرف على ثمن التذكرة بين كوبنهاجن وروما، فحمدت الله أن ثمنها منخفض بما يوازي رُبع القيمة عن أسعار شركات الطيران العادية حيث يقوم الاتحاد باستئجار بعض الطائرات لينظم بها رحلات مدعمة للطلاب بأرجاء القارة الأوربية ويستفيد من هذه الخدمة كل من يحمل كارنيه اتحاد الطلاب الدولي.

ومن هناك اتصلت بجوليا وطلبت منها مقابلتي مساء اليوم.

خاتم الزواج في دولاب الملابس

ذهبت قبل الموعد بساعة انتظر جوليا وكأنني كنت أشجع نفسي على الإقدام بفكرة الزواج.

وألمح عبر زجاج الكافتريا بصالة المحطة بعض الدانماركيات يتأبطن أفارقة بحنو بالغ.

والبسمة تملأ ثغورهن وكأنهم فزن باللون الأسود الذي يعشقنه فكانت وحدة انسانية جميلة تثبت أن الإنسان له أصل وجنس واحد لا فرق بين أبيض وأسود.

ولم أدري بجوليا حين دخلت الكافتريا ووقفت خالفي لأسمع صوتها يقول لي: اتأخرت عليك.

- أبداً.
- ما رأيك أن نسير معاً؟
- إلى أين ؟
- إلى المكان الذي تأخذنا فيه أقدامنا.

خرجنا من الكافتريا واتجهنا صوب أحد الجسور العملاقة لقناة عريضة متصلة بالبحر مباشرة فكانت أضواء جانبي القناة تتلألأ على الضفتين كالماسات المبعثرة البراقة فتنعكس على صحفة المياه أضواء خلابة تختلط بالموج.

نظرت إلى عيونها المتوقدة سحراً وأضواء الجسر تختلط بضيائها بادرتها بقولي: ما رأيك في أنني مغرم بكي وأريد أن أقول لكي شيئاً.

- ما هو؟
- أريد أن أتزوجك.
- تتزوجني؟ مستحيل.
- لماذا؟
- لأنني متزوجة.
- متزوجة؟ لم تقولي لي ذلك من قبل.
- لم تأتي الفرصة التي أقول لك كل شيء.
- وأيضاً لم يكن في يدك خاتم الزواج؟
- لم أعد بحاجة إليه.
- وأين زوجك؟
- يعيش في النرويج مع أخرى.
- أتحبيه ؟
- أحببته قبل الزواج.
- وبعد ذلك ؟
- لم يربطني به سوى خاتم الزواج الذي احتفظ به في دولابي.
- وهل يعلم بأن لكي أصدقاء؟
- كما أعلم أنه يعيش مع أخرى.
- ولماذا لم تطلبي الطلاق؟
- لم أكن بحاجة إلى ذلك.
- ألم تتمني أن تكوني أماً؟
- أنا أم ولي ولد.
- أنت أم ولك ولد؟ أين هو إذن؟
- في بيت رعاية الدولة.
- ولماذا لا يعيش معك؟

- لأن عملي يأخذ معظم الوقت مني ولا أستطيع أن أقوم بتربيته.
- هل تزورينه؟
- من وقت إلى آخر.
- وأبوه ، هل يزوره؟
- أنه للأسف توفي.
- قلتي أنه في النرويج مع أخرى.
- هذا زوجي وليس والد الطفل.
- كيف ؟
- لم أنجب من زوجي، أما الولد فكان من صديقي قبل الزواج.
- أتقصدين أنه ابن غير شرعي؟
- بالضبط.
- إنها مأساة.
- هي الحياة.

كنت أتساقط من كوكب السعادة إلى كوكب الأرض كل مرة تصطدم فيه أحلامي مع أرض الواقع.

كما لم تقل ، أنا أيضاً ..

من الصعب أن تتوقع شيئاً في هذه المدينة أنها مدينة الحياة والحب والجمال والجنس وكل شيء.

أنه التقدم في كل شيء حتى العلاقات الاجتماعية سرحت في هذه الأفكار أتأملها أؤكدها لنفسي حتي لا تحلم بعد ذلك.

بادرتها بقولي أنني أريد أن أرى طفلك هل تمانعي في أن تذهبي معي إليه؟

- غداّ نذهب إليه في الواحدة ظهراً، ما رأيك؟
- موافق.

ذهبت معها إلى بيت رعاية الدولة وجدته بيت نظيف أنيق به مدينة كاملة للأطفال أنه أدفى من أي بيت.

سرعان ما عادت جوليا به كان طفلاً في السنة الخامسة من عمره تقريباً، كان جميلاً شبيه بأمه إلى حد كبير وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه هو الآخر.

جلسنا بأحد الأركان المعدة لاستقبال الوافدين.

المكان يشرف على حديقة كبيرة متناسقة الأشجار والأزهار تملؤها من كل جانب.

وأخرجت من الشنطة بعضاً من تحف خان الخليلي كنت أحضرتهم معي، وقلت لها: هذه هدية بسيطة أُقدمها لكي قبل أن أسافر غداً.

ومددت يدي ألبس الطفل سلسلة بها مفتاح النيل وألبسها خاتم.

- ستسافر؟ لم تقل لي أنك ستسافر.
- لم أقل لكي أشياء كثيرة.
- وستسافر إلى مصر مباشرة؟
- أولاً إلى روما ثم إلى مصر.
- هل ستعود هنا ثانية؟
- ليس قبل أن أُنهي دراستي ما رأيك في أن تزوري مصر.
- هذا ما أحلم به أُريد أن أرى الشرق كله لاستمتع بدفئه.
- سأكتب لكي حينما أصل.
- وسأكون في انتظار رسالتك.
- هل ستأتي؟
- في أي لحظة مناسبة سأُبلغك بها.

حزمت حقيبتي والمرارة كانت تقف كالغصة الجامدة بحلقي لأنني راحل عن المدينة التي أصبحت في أمس الحاجة إليها.

إلى طبيعتها الخلابة وجمالها الأخاذ ونظافتها البراقة إلى دفئها وجنونها إلى كل شيء.

كانت كشخص عزيز لقلبي أحسست بفقده بعد أن ربطتني صداقة حميمة لكل جزء من أجزائها.

وظللت أودعها بعيناي من خلال نافذة الأتوبيس الذي كان ينطلق بي إلى المطار.

وبالسرعة المعتادة أنهيت إجراءات السفر لأخذ الطائرة المتجهة إلى روما التي سرعان ما حلقت فوق المدينة.

فنظرت من النافذة كي ألقي آخر نظرة على أرض العطاء والحب والزهور لأجمل عاصمة في أوربا وقلب اسكندنافيا.

كوبنهاجن الرائعة جنة الله في أرضه.

والى اللقاء عزيزي القارئ ، مع رحلة أخرى من رحلات .. السفر والحياة ..

عمرو إبراهيم ..

رقم الايداع : ٢٠١٠/١٩٢١٩

الترقيم الدولي: ٥-٩٥٨٠-١٧-٩٧٧

تحت الطبع

(١) أحلام كرم	رواية
(٢) طيور الشرق	أدب رحلات
(٣) مصر وحلب	رحلة وتاريخ
(٤) دمشق ومصر	رحلة وتاريخ
(٥) إيطاليا – نيويورك	أدب رحلات
(٦) الفرنسيس والشرق	مسرحية
(٧) روح المحاماة	أدب قانوني
(٨) آخر الجلسة	أدب قانوني
(٩) حصانة المحامي	محاماة
(١٠) كفالة حق الدفاع	بحث
(١١) سيد أحوال	قصة
(١٢) شرق المتوسط	قصة